

التدين بين المظهر والجوهر

ح) حسن موسى الصفار، ١٤٣٢ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الصفار، حسن موسى
التدين بين المظهر والجوهر/ حسن موسى الصفار - القطيف،
١٤٣٢ هـ
٧٨ ص؛ ٢١,٥ × ١٤,٥ سم
ردمك: ٥-٨٦٦٦-٠٠-٦٠٣-٩٧٨
١-الالتزام (دين) أ.العنوان
ديوي ٩, ٢١٠, ١٤٣٢/١٠٢٠١
رقم الإيداع: ١٤٣٢/١٠٢٠١
ردمك: ٥-٨٦٦٦-٠٠-٦٠٣-٩٧٨

.....
الطبعة الأولى | محفوظات
جميع الحقوق محفوظة
١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م



أطراف للنشر والتوزيع
هاتف / فاكس : ٨٥٤٩٥٤٥ (٣) ٩٦٦ +
جـوال : ٥٠٥٨٦٨٧٧١ - ٩٦٦ +
القطيف - شارع القدس
ص.ب ٦١٢١٥ القطيف ٣١٩١١
المملكة العربية السعودية
E-mail : atyaf-pd@hotmail.com

حسن بن موسى الصفار

التدين بين المظهر والجوهر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين اللهم صل على محمد
خاتم النبيين وتمام عدة المرسلين وعلى آله
الطيبين الطاهرين، وصحبه المنتجبين.

مقدمة

الدين ثروة روحية عظيمة، ومخزون قيمى كبير، لكن كثيراً من المنتمين إلى الدين يغفلون عن عظمة دوره في حياتهم، وعن الطاقة الهائلة التي ينطوي عليها الدين في أعماق نفوسهم، ويكتفون من الدين بأدائهم للمظاهر العبادية، والممارسات الشعائرية، دون أن يتوجهوا لاكتشاف طاقته الجبارة، وإمكاناته الفاعلة، التي يمكن أن تثري حياتهم بالطمأنينة والسعادة، وتوجه سلوكهم للإنتاج والبناء وفعل الخير في مختلف المجالات.

إن الدين قيم ومبادئ يؤمن بها الإنسان لتقود حياته، وتصنع شخصيته، وتهذب سلوكه، وليس مجرد معتقدات نظرية ينطوي عليها قلبه، ولا مجرد ممارسات طقوسية يعتاد أداءها والقيام بها.

وأهم أثر للدين هو اطمئنان النفس، حيث يعتقد المتدين بإله قادر حكيم، يسيّر شؤونه وشؤون الكون والحياة، وتمتلئ نفسه ثقة بربه، وتوكلًا عليه، فيصبح قوي الجنان، صامدًا أمام المشاكل والتحديات، يتعامل مع صعوبات الحياة ومشاكلها على أنها ابتلاء وامتحان يستعين بالله لاجتيازه بثقة ونجاح، فلا يهرب من المشكلات، ولا يفكر في الانتحار، ولا يصيبه الاكتئاب، ولا يسيطر عليه اليأس والقنوط، فهو مؤمن و ﴿لَا يَبْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [سورة يوسف، الآية: ٨٧].

إنه يغترف الطمأنينة، ويستلهم العزيمة من اتصاله بربه، وحضور ذكره تعالى في قلبه ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [سورة الرعد، الآية: ٢٨].

أما الانعكاس الآخر للالتزام الديني، فهو حسن السيرة والسلوك، حيث ينطلق المتدين في أقواله وأفعاله وممارساته ومواقفه من قيم الحق والعدل والإحسان، ويتوخى رضا الله سبحانه، ويتجنب ما يسخطه.

وبين يدي القارئ الكريم سطور متواضعة تعنى بتوجيه الاهتمام نحو حقيقة التدين، وتجلياته في أعماق النفس ومظاهر السلوك.

راجياً من الله سبحانه أن يجعلني والقارئ الكريم ممن ينتفعون بالذكرى والموعظة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الذاريات، الآية: ٥٥].

حسن بن موسى الصفار

القطيف

٢٥ رمضان ١٤٣٢ هـ

٢٥ أغسطس ٢٠١١ م

الفراغ الروحي: قلق واضطراب

للإنسان في هذه الحياة احتياجات ومتطلبات، ولا تستقر حياته إلا إذا وجد أمامه الفرصة لتحقيق تلك الاحتياجات، ويمكننا أن نقسم متطلباته إلى ثلاثة أصناف، يرتبط كل صنف منها ببعد من أبعاد شخصيته.

الصنف الأول: الاحتياجات المادية، وترتبط بالبعد الجسمي المادي من حياة الإنسان، كالحاجة إلى الغذاء، والكساء، والسكن، والعلاج، والجنس.. وهي احتياجات ضرورية، إذا لم تتوفر تضطرب حياة الفرد والمجتمع، ومعلوم أن معاناة الفقر والحرمان ولو في جزء من المجتمع، قد تسلب الأمن والاستقرار من المجتمع كله؛ لأنها تكون أرضية للتمرد والإجرام، لذا ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كاد الفقر أن يكون كفراً»^(١) وينقل عن الصحابي الجليل أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قوله: «عجبت لمن لا يجد القوت في بيته، كيف لا يخرج على الناس شاهراً سيفه»^(٢).

الصنف الثاني: المتطلبات العقلية، فالعقل الذي منحه الله تعالى للإنسان،

(١) علاء الدين علي المتقي الهندي. كنز العمال، ج ٦، الطبعة الخامسة ١٩٨٥م (بيروت: مؤسسة الرسالة)، ص ٤٩٢، حديث ١٦٦٨٢.
(٢) خالد محمد خالد، رجال حول الرسول، طبعة ١٩٦٨م، (القاهرة: دار الكتب الحديثة)، ص ١٠٠.

يتطلب العلم والمعرفة، ويحتاج إلى الأجواء التي تتيح له حرية الفكر، وإلى الوسائل والأدوات المساعدة على النشاط العلمي والفكري، ومن الوهلة الأولى التي خلق الله تعالى فيها الإنسان، وفر له فرصة العلم والتعلم، يقول تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [سورة البقرة الآية ٣١]، ويقول تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ. عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [سورة الرحمن، الآيتان: ٣-٤].

وإذا حظر على الإنسان نشاطه الفكري، وحرّيته العلمية، وسلب حق المعرفة، فإنه يفقد الجزء الأساس من إنسانيته، وبالتالي لا يشعر بالكرامة والراحة.

لذا أوجب الإسلام بذل العلم، وإتاحة الفرصة للمعرفة والتعلم، روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من كتم علمًا نافعًا، أجمه الله يوم القيامة بلجام من نار»^(١).

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [سورة البقرة، الآية: ٣] يقول الإمام جعفر الصادق (عليه السلام): «مما علمناهم يبثون»^(٢).

الصف الثالث: التطلعات الروحية المعنوية، فالإنسان روح وجسد، وكما أن للجسد احتياجاته ومستلزماته كذلك فإن للروح تطلعاتها، وهي ذات تأثير كامل على سير الجانب المادي في حياة الإنسان، فلو توفرت له كل احتياجاته المادية، لكنه كان يعيش الخواء والجوع الروحي، فإن حياته لا يمكن أن تستقر أو تهأن.

احتياجات الروح

والروح تحتاج إلى الطمأنينة والثقة والرضى، وراحة الضمير والوجدان،

(١) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج ٢، الطبعة الثالثة ١٤٠٣ هـ، (بيروت: دار إحياء التراث الإسلامي)، ص ٧٨.

(٢) بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ٢٦٧.

والماديات بمحدوديتها وتقلباتها ونقائصها ومنغصاتها، لا توفر للإنسان السعادة والاطمئنان والاستقرار الروحي.

فلا بدّ أن تتصل روح الإنسان بما فوق المادة، بالقوة المطلقة، التي لا حد لها، والتي إليها مرجع الأمور.

صحيح أن الإنسان يمتلك شيئاً من القدرة والقوة، خاصة في هذا العصر، حيث تطورت إمكانات البشر، وتقدمت قدراتهم العلمية والتكنولوجية، لكن الإنسان يدرك أن حياته وقدراته وقواه ليست ذاتية، فهو جاء إلى الحياة بغير قرار منه، ويخرج منها دون اختياره، وفي أي لحظة من اللحظات، حيث لا يستطيع التحكم في توقيتها.

ويدرك الإنسان بفضل تقدمه العلمي الآن، مدى محدوديته وضآلته، قياساً إلى هذا الكون الفسيح الذي يعيش في رحابه، فالكرة الأرضية التي يحيا على سطحها يمتد عمرها إلى ما قبل ٥, ٤ بليون سنة، وهي على ضخامتها مجرد كوكب يدور حول الشمس، مع تسعة كواكب أخرى، تكوّن مجموعة شمسية، وهذه الشمس يبلغ حجمها ١,٣٠٠,٠٠٠ مرة قدر حجم الأرض، وهي نجم واحد بين البلايين من النجوم، تتكون منها مجرة تدعى درب التبانة، ويقدر عمرها بما يتراوح بين ١٠ و ١٥ بليون سنة، وهذه المجرة واحدة من بلايين المجرات التي تسبح في محيط الكون^(١)!!

وكما يقول أحد العلماء: لو أردنا أن نشبّه الكون لقلنا: إنه يشبه المحيط الكبير، وكل مجرة من المجرات هي جزيرة في ذلك المحيط الكبير، وكل مجموعة شمسية في كل مجرة، تشبه قطعة أرض في تلك الجزيرة، وأرضنا التي نعيش عليها بمقدار نملة في قطعة أرض، ضمن جزيرة من بلايين الجزر، في ذلك

(١) الموسوعة العربية العالمية. ج ١٤، الطبعة الثانية ١٩٩٩م، الرياض، ص ٢٤٦.

المحيط الكبير!! فما هو إذن حجم الإنسان قياسًا إلى هذا الكون العظيم؟ إنه يشعر بضعفه وعجزه، مع كل ما أنجز وحقق من تقدم علمي، ومكاسب تكنولوجية، ويظهر ذلك جليًا حينما تعصف به الكوارث الطبيعية، كالزلازل والبراكين، والفيضانات والأعاصير.. وهو يفقد السيطرة حتى على جسمه ومشاعره نفسه، فبينما هو في قمة الصحة والنشاط، تغزوه العلل والأمراض، وتدركه الشيخوخة والمهرم، وحين يصبح في غاية السرور والبهجة، فقد تصيبه الكآبة والحزن، وهكذا يتقلب بين الحالات المختلفة، لا يستطيع أن يحتفظ لنفسه بحالة معينة، ولا أن يدفع عنها أخرى.

هذا الشعور العميق بالمحدودية والضعف، والإحساس الكبير بالضآلة والعجز، يدفع الإنسان إلى البحث عن مصدر القوة والقدرة، وعن الجهة المهيمنة على الكون والحياة، لتطمئن نفسه بالارتباط بها، وليسكن قلبه، وتستقر مشاعره، بالاقتراب منها.

وذلك هو الدين، الذي يقدم للإنسان الإجابة عن تساؤلاته الحائرة، حول وجوده ومصيره، ويشق له طريق التواصل والتعاطي مع خالق الكون والحياة.

فالتدين نزوع فطري عند الإنسان، لتركيبته المميزة من روح وعقل وجسد، يقول (وول ديورانت) في قصة الحضارة: «إن الكاهن لم يخلق الدين خلقًا، لكن استخدمه لأغراضه فقط، كما يستخدم السياسي ما للإنسان من دوافع فطرية وعادات، فلم تنشأ العقيدة الدينية عن تلفيقات أو الأعياب كهنوتية، إنما نشأت عن فطرة الإنسان بما فيها من تساؤل لا ينقطع، وخوف وقلق وأمل وشعور بالعزلة»^(١).

(١) وول ديورانت. قصة الحضارة، ج١، طبعة ١٩٨٨م، (بيروت: دار الفكر)، ص ١١٧.

لكن الإنسان قد يضل الطريق إلى الدين الصحيح، إذا لم يتوفّق للهدى الإلهي والرسالات السماوية.

التقدم المادي، هل يكفي؟

قد يتصور البعض أن مجتمعاتنا في حاجة للرقى العلمي، والتقدم التكنولوجي، والتطور السياسي والاقتصادي، لتلحق بركب الحضارة والتقدم، أما الجوانب الروحية والدينية، فهي أمرٌ هامشي كمالى، لا دور له في صناعة واقع التطور والتقدم.

لكن ومع الإقرار بحاجة مجتمعاتنا إلى الرقى العلمي والتكنولوجي والسياسي والاقتصادي، إلا أن إشباع الجانب الروحي له أولوية ومركزية، لا يمكن التساهل تجاهها.

إن المجتمعات الغربية المتقدمة، التي نطمح للاقتراب من مستوى تقدمها، تعيش أزمات اجتماعية خطيرة، تنغص عليها لذة التقدم، بسبب ما تعانيه من خواء وفراغ روحي.

فالوفرة المادية، والتفوق العلمي، وحدهما لا يمنحان الإنسان السعادة والاطمئنان، وإذا لم يملأ الفراغ الروحي، فإن حياة الإنسان تكون عرضة للعذاب والاضطراب.

اينشتاين أنموذجاً

الرجل الذي وضع النظرية النسبية كان فاشلاً في حياته الخاصة، بل كان (البرت اينشتاين) زير نساء، شرساً قاسياً مع أطفاله، وأباً لابنة غير شرعية، لم يرها ولا اعترف بها تدعى (ليزريل)، وتكشف وثائق ومستندات بينها رسائل شخصية - ضمن العائلة - أن زواج اينشتاين الأول من (ميليجا ماريك) أدى

إلى الطلاق بسبب علاقة سرية ربطته بقريبته (إلسا).

وتشير الرسائل إلى شراسة اينشتاين حيال زوجته ميليجا أثناء فراقهما، ممّا أصابها بانهيار عصبي لم تشف منه حتى وفاتها. وتنسحب تلك الشراسة على معاملته ولديه (هانز البرت) البكر وكان في الخامسة عشرة عندما غادر والده المنزل العائلي، (وإدوارد) الأصغر الذي أصيب بالخبال بعد طلاق أبويه وأمضى حياته في عيادة سويسرية للأمراض العصبية، فلم يزره والده مرة^(١).

ومثل اينشتاين ما حصل لـ (آرمسترونج: نيل اولدن)، وهو أول إنسان وطأت قدماه سطح القمر في ٢٠ يوليو ١٩٦٩م، إلا أنه كان يفقد السعادة والاطمئنان، فقد طلق زوجته واصطدم مع أبنائه، واصطبغت حياته بالاضطراب والكآبة.

عن واقع المجتمع الأمريكي

المجتمع الأمريكي هو في القمة من الحضارة المادية المعاصرة، لكن الفراغ الروحي في ذلك المجتمع، أنتج مضاعفات ومعاناة خطيرة في حياة وسلوك الأمريكيين، حيث ينتشر القلق، وتزداد حوادث الانتحار، وتتصاعد جرائم العنف، حتى على مستوى طلاب المدارس الابتدائية، كما تحدثت عن ذلك وسائل الإعلام، عدا عن الفساد الأخلاقي المستشري.

ففي سنة ماضية تصدر قائمة الكتب الأكثر مبيعاً في أمريكا، حسب صحيفة (نيويورك تايمز) كتاب عنوانه (الخروج النهائي) تأليف البريطاني (ديريك همفري سيتندر) الذي يتحدث عن أساليب الانتحار ووسائله

(١) جريدة الحياة. لندن، الصادرة بتاريخ ١٤ صفر ١٤١٤هـ.

المختلفة، بلغة إرشادية توجيهية^(١).

هذا الواقع المأزوم لفت أنظار المفكرين الغربيين إلى موقع الخلل في الحضارة المادية، وهو الخواء والفراغ الروحي، كما دفع بفئات من المجتمع الأمريكي والغربي، إلى البحث عن مصدر إلهام روحي، يسدّ ذلك الفراغ، ويملاً ذلك الخواء، مما أفسح المجال لنمو التوجهات الأسطورية والخرافية. وعن هذه الحالة يتحدث الباحث الأمريكي (روستو) في كتابه الرائد (مراحل النمو الاقتصادي)، حيث يرى:

أن الدول تمر بمراحل عدة: مرحلة المجتمع البدائي، مرحلة التهيؤ للانطلاق، مرحلة النضج، مرحلة الاستهلاك الجماهيري وما بعده. ويؤكد أن الولايات المتحدة الأمريكية، هي المجتمع الوحيد الذي وصل إلى مرحلة الاستهلاك الجماهيري، وأنه ينتقل إلى ما بعده، ومن مظاهر هذه المرحلة أن المجتمع ينتج أكثر مما يستهلك، وتتحدد مشكلته الاقتصادية في خلق الطلب، وليس في توفير العرض، وتتحكم فيه وسائل الإعلام وأدوات الدعاية، فيما يتحول عن الإشباع المادي إلى ما يمكن أن يسمى الاتجاه الروحي، ومن ثم تنتشر الخرافات والأوهام والمذاهب والبدع والادعاءات، سواءً تعلقت بالدين أو خرجت منه أو عليه.

كما يشير إلى أن المجتمع الأمريكي ذو خصوصية مميزة هي الغنى، بل إن الولايات المتحدة أغنى دول العالم، إذ يزيد ناتجها القومي الإجمالي عن ٥, ٥ تريليون دولار، بينما يزيد متوسط الدخل الفردي عن ٢٢ ألف دولار، مع ارتفاع مستوى التصنيع والتقدم التكنولوجي، والعمر المتوقع عند الميلاد. والمدقق في الحياة الأمريكية، قد يفاجأ بمظاهر عدة للتدهور الاجتماعي، إلى

(١) جريدة السفير. بيروت، الصادرة بتاريخ ٣٠ محرم ١٤١٢هـ.

حدّ الفوضى الداخلية التي لا رابط لها.

ومن القضايا التي يتناولها التلفزيون الأمريكي أيضاً، مسألة كشف الغموض، ومعرفة الحظ، أو قراءة الطالع، والبحث عن المفقود، حتى وإن كان حبيباً أو رفيقاً، أو ربما مألماً وجاهلاً، ففي هذه الحال عليك أن تتصل برقم مكتوب على شاشة التلفزيون، وتحكي ما تعاني منه، أو تبحث عنه، أو ربما ما تريد أن تتجنبه، وسوف تعطى الإجابة عما تريد: هل فقدت مألماً؟ هل فقدت أوراقاً ووثائق مهمة؟ سوف يظهر لك شخص دجال أو طيب، يقودك بالإيجاء لإيجاد ضالتك ويحصل منك على حاجته وهو المال بالطبع^(١).

الدرس والعبرة

ليس المقصود من استعراض مكمّن الضعف والخلل في الحضارة المادية، رسم صورة سوداء قائمة لهذه الحضارة، ولا مجرد التشهير بأوضاع تلك المجتمعات، فهي حضارة تفرض هيمنتها على واقع الحياة، بإنجازاتها العلمية والتكنولوجية، ويجب أن تطمح مجتمعاتنا للالتحاق بركبها المتقدم، إلا أن المطلوب هو التمييز والفرز بين نقاط القوة والضعف في هذه الحضارة المادية، وحتى ندرك خطورة الجانب الروحي، فلا نتجاهله ونهمله، في تقويم أوضاع مجتمعاتنا، بل نهتم بالبرامج والخطط التي تنمّي التطلعات الروحية وتغذيها. إن الله سبحانه وتعالى يحذّر البشرية من أن تجاهل الجانب الروحي يسبب القلق الفردي، والاضطراب الاجتماعي، وبالتالي ضنك العيش، وشقاء الحياة، يقول تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ [سورة طه، الآية: ١٢٤] بينما التوازن والتكامل في تلبية احتياجات الإنسان في توجهاتها المادية والعقلية والروحية، يضمن للإنسان حياة طيبة سعيدة: ﴿مَنْ عَمِلْ

(١) جريدة الحياة، لندن، الصادرة بتاريخ ٢٩ شوال ١٤١٥ هـ.

صَاحِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴿سورة النحل، الآية: ٩٧﴾.

بين الانشداد المادي والسمو الروحي

خلق الله الإنسان مزيجاً من عنصرين، أحدهما مادي والآخر روحي، قبضة من طين وومضة من روح، يقول تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [سورة ص: الآيتان ٧١-٧٢].

هذا المزج في خلق الإنسان بين عنصري المادة والروح، هو سبب حالة الصراع الداخلي عند الإنسان، بين طرفي هذه المعادلة، الطين والروح، فعنصر المادة أو الطين يشده نحو الأرض، وينحدر به إلى الاهتمامات المادية، بينما عنصر الروح يدفعه إلى الأعلى، ويحلّق به في سماء القيم والمثل. وفي هذا الصراع يكمن امتحان الإنسان، ويكون التحدي الأكبر، وعلى نتيجة هذا الصراع يتقرر مصير الإنسان ويتحدد مستواه، إما في أحسن تقويم، حينما يعيش حالة التوازن، ويمارس اهتماماته المادية في ظل القيم وتحت سقف المبادئ، وإما في أسفل سافلين، إذا ما اتخذ إله هواه، وسيطرت عليه شهواته ورغباته.

ويمكننا أن نحدد أهم خطوط التماس ونقاط التعارض بين التوجهين في حياة الإنسان في الأبعاد الثلاثة التالية:

أولاً: بين الشهوة والتعقل

فمن عنصر الطين وجدت في الإنسان الغرائز والشهوات، وهي تضغط عليه لإشباعها، وتلبية متطلبات الجسم ورغباته من طعام وشراب وجنس وراحة، وما يرتبط بها من مال ومنصب ومقام. لكن الاستجابة المطلقة لهذا الاتجاه، تحوّل الإنسان إلى مستوى الحيوانات البهائم التي لا هم لها إلا هذه الرغبات، ولا اهتمام لها سواها، فهي تأكل في كل مكان من مزبلة أو مرعى،

وتشرب من أي ماء نظيفاً كان أو قذرًا، وتمارس الجنس في أي وضع، لأنها مسيرة بغرائزها فقط.

لكن حالة التعقل عند الإنسان، والنابعة من عنصر الروح، هي التي تضع له في ممارسة شهواته ورغباته حدودًا وضوابط، فيأكل ويشرب وينكح ويتملك ويتزعم، ولكن كل ذلك ضمن توجيه العقل وهدايته.

فالاستجابة الأكثر للشهوة، يعني الانحدار أكثر في أعماق الحالة الطينية المادية، بينما التعقل والضبط الأفضل للرغبات والشهوات، يعني السمو الأكبر في آفاق التطلعات الروحية المعنوية.

ثانياً: بين الأنانية والسمو

فالجانب الطيني يركز في الإنسان حالة الأنانية، وتعني الاهتمام بالذات فقط، وتغليب المصالح الشخصية على كل شيء، إذ المادة كمادة، ليس لها قدرة على التوجه لخارج ذاتها، فهي تعيش بذاتها لذاتها.

بينما جانب الروح يوجه الإنسان إلى الأفق الأرحب، خارج ذاته، فيتطلع إلى رضا ربه وخالقه، ويهتم بأوضاع الآخرين من حوله، ويفكر في المصلحة العامة، إن الأنانية النابعة من الطين هي التي تدفع الإنسان للاعتداء على حقوق الآخرين من أجل أن يكسب هو، وهي التي تمنعه من العطاء والبذل، ليوفر أكبر قدر من الإمكانيات لنفسه هو.

لكن ضمير الإنسان ووجدانه، المنبثق من نفخة الروح الإلهية، هو الذي يردعه عن الظلم والعدوان، ويشجعه على نفع الآخرين ومساعدتهم، بل وإيثارهم على ذاته ونفسه.

فاهتمام الإنسان أكثر بذاته هو انحدار مادي، وتوجهه نحو الآخرين والمصلحة العامة هو سمو روحي.

ثالثاً: بين المحدودية والقيم

فالطين مادة تشغل حيزاً محدوداً من الزمان والمكان، وهي تحدد الإنسان بحدودها الضيقة، وتشغله بمتطلباتها ومستلزماتها الآنية العاجلة، بينما الروح مرتبطة بالملق واللامحدود واللامتناهي، إنها نفخة من الله ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ والإضافة هنا للتشريف وإلا فليس لله جسم أو روح بالمعنى المتداول عندنا.

والروح تفتح الإنسان على عالم القيم والمثل، وهو عالم واسع عريض رحب، إذا تطلع إليه الإنسان، تسامى على الماديات المحدودة، وجند نفسه لخدمة القيم الإلهية الخالدة، فيكون داعياً للخير، ورائداً للعدل، وعاملاً من أجل الحق.

من هنا فإن من يكرّس حياته للماديات يكون منحازاً لجانب الطين في خلقته، بينما من ينذر نفسه للمبادئ والقيم يكون محلّقاً في عالم الروح، خالداً في نعيم الرضوان الإلهي.



تجليات الالتزام الديني

للدين أبعاد مختلفة تستوعب جوانب الإنسان والحياة، وقد يهتم بعض المتدينين بناحية معينة من الدين ويعتبرونها الجانب الأهم فيه، وأنها تشكل عمقه وجوهره، فمثلاً يركز البعض على الجانب العقدي، ويولون قضاياها ومسائله الأهمية القصوى، باعتبار أن العقيدة هي الأصل والأساس. بينما يوجه آخرون عنايتهم نحو شعائر الدين وعباداته، كالصلاة والصيام والحج والزكاة، لما ورد فيها من النصوص آيات وأحاديث. ويؤكد بعض على محورية تطبيق أنظمة الإسلام وقوانينه في إدارة المجتمع، لأن أسلمة الحياة العامة، تجسد حاكمية الدين ونفوذه. وكل تلك الأبعاد مهمة وأساسية، غير أن هناك بعداً آخر يحق لنا أن نعتبره عمق الدين، وجوهر التدين، وهو الحالة التي يستهدف الدين خلقها وإيجادها في نفس الإنسان، وهي الوازع الديني، أو ملكة التقوى حسب منطق القرآن والنصوص الدينية.

وما العقيدة إلا أرضية لإنتاج هذه الحالة، فإذا لم تحصل أصبحت العقيدة مجرد معلومات مختزنة في ذهن الإنسان، غير فاعلة ولا مؤثرة في حياته، وتلك هي مشكلة بعض الكافرين، الذين لا تنقصهم العقيدة كمعلومات وحقائق، لكنهم لا يذعنون لها في حياتهم لغياب هذا الوازع من نفوسهم. لذا فإن القرآن الكريم يقول عنهم: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ

السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجِ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجِ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرِ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿[سورة يونس، الآية: ٣١]﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ. سَيَقُولُونَ اللَّهُ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿[سورة المؤمنون، الآية: ٨٧]﴾، فأن تعلم وتعترف بالله تعالى لا يكفي، وإنما المطلوب أن يثمر ذلك حالة التقوى في نفسك.

وعبادات الإسلام ليست مقصودة بذاتها لذاتها، وإنما هي حسبا يبدو من نصوص الدين، برامج ووسائل لتمكين حالة التقوى في نفس الإنسان، فعن الصلاة يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [سورة العنكبوت، الآية: ٤٧]، فهي تهدف إلى خلق هذا الوازع الذي يردع عن الانحراف، وإذا لم يتحقق هذا الهدف فلا قيمة لتلك الصلاة، كما روي عن الرسول ﷺ: «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزد من الله إلا بعدا»^(١) والصوم حكمة تشريعه الوصول إلى درجة التقوى، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٨٣].

والحج، ما المقصود بمناسكه وشعائره؟ وهل لله تعالى غرض فيها؟ إنه عز وجل في الحديث عن الأضحية في الحج يشير إلى أن ما يريده منها هو زرع ملكة التقوى عند الإنسان، يقول تعالى: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاؤَهَا وَلَكِنَّ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ [سورة الحج، الآية: ٣٧].

وحتى الأنظمة والقوانين العامة غرضها تعزيز هذا الوازع الديني في النفوس، كما يقول تعالى حول تشريع نظام القصاص والعقوبات: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٧٩]. إذا

(١) كنز العمال. ج ٧، ص ٥٢٥، حديث ٢٠٠٨٣.

فالتقوى هي الجوهر والغاية والحصيلة من كل جوانب الدين: عقيدة وعبادة ونظامًا. ورائع جدًا ما قاله أمير المؤمنين علي (عليه السلام): «التقوى منتهى رضى الله من عباده وحاجته من خلقه»^(١).

إصلاح الإنسان بالقانون

في نفس الإنسان مجموعة كبيرة من الدوافع المتعددة والمتناقضة، وكما يقول الفيلسوف البريطاني (برتراند راسل): «الإنسان أكثر تعقيدًا في نزعاته ورغباته من أي حيوان آخر، وتنشأ الصعوبات التي يواجهها من هذا التعقيد، فهو ليس اجتماعيًا تمامًا مثل النمل والنحل، ولا هو انفرادي تمامًا مثل الأسود والنمور، إنه حيوان شبه اجتماعي، وبعض رغباته ونزعاته اجتماعي، وبعضها انفرادي»^(٢)، فهو مخلوق مادي روحي، خلقه الله تعالى من قبضة من تراب ونفخة من روح، وللتراب انشداداته وميوله، كما للروح طموحاتها وتطلعاتها، مما يجعله ميدان تجاذب بين الاتجاهين، وعلى حد قول بعض الفلاسفة: إنه مواطن في عالمين، وتعترى الإنسان حالات متفاوتة من الرضا والغضب، والفرح والحزن، والإقبال والإدبار، والعلم والجهل. ومع هذه التجاذبات والانشدادات المتضادة، يحتاج الإنسان إلى قوة تمكنه من التحكم السليم في رغباته وميوله، وتوجهها لصالح نفسه ومجتمعه، ولا توجد قوة تتمكن من القيام بهذا الدور، أفضل من قوة الدين، وما نصطلح عليه بالوازع الديني، فهو قوة تدفع الإنسان للخير وتمنعه عن الانحراف والشر.

وقوة القانون ليست قادرة على ذلك؛ لأن القانون طوع واضعه، ويمكن

(١) علي بن محمد الليثي الواسطي. عيون المواعظ والحكم، الطبعة الأولى، (قم المقدسة: دار الحديث)، ص ١٥٤.

(٢) الدكتور يوسف القرضاوي. الإيمان والحياة، الطبعة السادسة عشرة ١٩٩٣م (بيروت: مؤسسة الرسالة)، ص ١٧٠.

التحاييل والالتفاف عليه، ولأنه يتعامل مع ظاهر الإنسان وخارجه، ولا ينفذ إلى عمقه وباطنه، كما يستطيع الإنسان أن يفلت من عقوبة مخالفته للقانون، فضلاً عن أن القانون قد يعاقب المسيء لكنه لا يكافئ المحسن.

إن قوانين المرور - مثلاً - تعاقب من يقطع الإشارة الحمراء لو ضبطته الشرطة، ولكن من يعاقبه لو لم يره أحد، أما الدين فإنه كما يعاقب هذا فإنه يكافئ ذلك، وهو يزرع في قلب كل امرئ رقيباً على نفسه «اعبد الله كأنك تراه فإن كنت لا تراه فإنه يراك»^(١). وقال تعالى: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٧٩] وكان رسول الله ﷺ إذا قرأ هذه الآية بكى بكاء شديداً^(٢).

العلم هل يضبط الإنسان؟

وقد يرى البعض أن تقدم وعي الإنسان، وتطوره العلمي، كفيل بضبط سلوكه وتصرفاته، لكن ما يقوله الواقع شيء آخر، فعلى المستوى العام، تطورت وسائل العنف وأساليب التخريب والفساد، وانتشرت الأسلحة الفتاكة وأسلحة الدمار الشامل، ووظف العلم لدى الدول الكبرى لمزيد من السيطرة والهيمنة على الشعوب.

إن أشعة الليزر التي كانت نعمة للبشرية، لمزاياها في عالم الطب والجراحة، وقطع الماس والمعادن الصلبة والكمبيوتر المتفوق، وإجراء القياسات الدقيقة والاتصالات، بدأت الآن تتحول إلى لعنة فالمزايا ذاتها التي تتصف بها، والتي من شأنها مثلاً معالجة أمراض العين وعيوبها، صارت تستغل لإتلاف هذه العين وحرمانها من نعمة النظر عن طريق تركيز الأشعة عليها، وبالتالي

(١) بحار الأنوار. ج ٢٥، ص ٢٠٤.

(٢) عبدعلي بن جمعة العروسي الحوزي. تفسير نور الثقلين، ج ٣، الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ، (بيروت: مؤسسة التاريخ العربي)، ص ٢٢١.

حرق الشبكية من دون أن تشعر الضحية بذلك إلا في وقت متأخر جداً، عن طريق إنتاج بندق الليزر الصغيرة، أو تلك المركبة على البنادق العادية، تبتث شعاعاً غير منظور إلى هدف بعيد، وحرق شبكية العين تمامًا في أقل من جزئين من الثانية، ورغم محاولة المؤسسات العلمية الخروج بإجراء واقٍ لهذا الخطر الداهم، على شكل نظارات خاصة يضعها الجنود على أعينهم لكن تبين أنه عن طريق تغيير طول الموجات الضوئية أمكن التغلب على خط الدفاع الأخير هذا^(١).

وعلى المستوى الفردي يمكننا التحدث عن مشكلة التدخين، حيث إن أضراره ومساوئه واضحة ثابتة علمياً، وحيث ألزمت شركات التدخين أن تكتب على كل علبة منتجة منه تحذيراً يقول: التدخين مضر بصحتك فاجتنبه، لكن هذا العلم والوعي لم يؤثر على انتشار التدخين وتسويقه.

ويشير تقرير عن وزارة التموين والتجارة الداخلية في مصر إلى أن الإنفاق على التدخين من قبل الفرد في القاهرة يفوق الإنفاق على التعليم والترفيه والثقافة والرياضة^(٢). وشركة واحدة تعمل في صناعة السجائر هي (فيليب موريس) تحقق موارد تبلغ ٣٠ بليون دولار سنوياً، كما أن العالم يستهلك سنوياً ستة آلاف بليون سيجارة.

وفي المملكة العربية السعودية تحدث تقرير لوكالة الأنباء السعودية عن تضاعف استهلاك سكان السعودية من التبغ ومصنوعاته لأكثر من مرة في العام ١٩٩٥ م عن العام السابق له، حيث بلغ الاستيراد ٢٢ ألف طن بقيمة ٨٤٤ مليون ريال، بينما في السنة السابقة بلغ ٩ آلاف طن، وتحتل المملكة المركز الرابع بين أكبر ١٥ دولة مستوردة للسجائر ويقدر إجمالي ما تستورده

(١) جريدة الشرق الأوسط. لندن، الصادرة بتاريخ ٢٠ أبريل ١٩٩٥ م.

(٢) جريدة الحياة. لندن، الصادرة بتاريخ ٢٢ يونيو ١٩٩٥ م.

بنحو ٤٧ مليون سيجارة يومياً^(١).

وقد كشفت آخر التقارير أن عدد المدخنين في المملكة العربية السعودية ٦ ملايين شخص، فيما وصل عدد المدخنين من شريحة المراهقين ٧٧٢ ألف مدخن، وتعتبر المملكة في المرتبة الرابعة على مستوى العالم في استهلاك التبغ، كما وصلت نسبة المدخنين بين طلاب المدارس إلى ١٠٪ من جملة المدخنين في المملكة، فقد استورد تجار التبغ ١٣ مليار سيجارة بمعدل ٢٠٠ سيجارة لكل مواطن وبلغت نسبة المدخنين في أواسط الشباب ٣٠٪ من جملة عددهم^(٢).

بينما يقول تقرير منظمة الصحة العالمية إن التبغ قاتل غادر مخاتل يقضي سنوياً على ثلاثة ملايين شخص. لا يخرّضحايا التدخين صرعى بعد السيجارة الأولى، ولا يحدث وباء مفاجئ بسبب التبغ بمجرد أن يبدأ الناس التدخين، إلا أن الأثر التراكمي والنتيجة المتأخرة يظهران بعد حوالي ما بين ٣٠ و ٤٠ عامًا من البدء في التدخين وتبلغ الوفيات بين المدخنين ثلاثة أضعافها بين غير المدخنين في كل الأعمار ابتداءً من مرحلة البلوغ والشباب. هذا يعنى أن الشخص الذي يدخن طوال عمره يواجه خطر الوفاة من جراء التدخين بمعدل يماثل خطر الوفاة بكل أسباب الموت الأخرى.

وتقدر المنظمة العالمية أن عدد المدخنين في العالم يربو حالياً على بليون ومئة مليون إنسان. وإذا استمرت اتجاهات الاستهلاك الحالية على نفس المنوال فإن أكثر من ٥٠٠ مليون شخص ممن هم اليوم على قيد الحياة سيقتلهم التبغ. سيموت نصف هؤلاء وهم في سن الكهولة، أي إن كل واحد منهم يخسر في المتوسط ما بين ٢٠ و ٢٥ عامًا من عمره المتوقع. أما العدد الإجمالي للأشخاص الذين يتوقع أن يموتوا بسبب التبغ ممن هم الآن على قيد الحياة فسيزيد على

(١) جريدة المسلمون. لندن، الصادرة بتاريخ ٢ مايو ١٩٩٧م.

(٢) جريدة الجزيرة. الرياض، العدد ١٤٠٩١، الصادر بتاريخ ٢٨ أبريل ٢٠١١م.

١٠ أضعاف مجموع من لا قوا حتفهم بسبب الحرب العالمية الثانية^(١).
فتحذيرات منظمة الصحة العالمية المستمرة، ونصائح الأطباء، ووقائع الإصابات التي يلحظها الناس بسبب التدخين، كل ذلك العلم والوعي، يعجز عن مقاومة الرغبة في التدخين أو التعود عليه عند المدخنين.

دور الوازع الديني

أما التدين الصادق فإنه يوجد في نفس الإنسان وازعاً دينياً، يجعله مندفعاً للخير، ممتنعاً عن الشر، متجاوزاً ضغط الرغبات والأهواء والشهوات.
لقد كان شرب الخمر عادة سائدة في الجاهلية، حيث كانوا يشربون الخمر في إسراف، ويعتبرونها من المفاخر التي يتسابقون في مجالسها ويتكاثرون، ويديرون عليها فخرهم ومدحهم في الشعر، ولكن لما نزلت آيات تحريم الخمر، سنة ثلاث للهجرة، لم يحتج الأمر إلى أكثر من منادٍ في نوادي المدينة: (ألا أيها القوم إن الخمر قد حرمت) فمن كان في يده كأس حطمها، ومن كان في فمه جرعة مجّها، وشقت زقاق الخمر، وكسرت قنانيه.. وانتهى الأمر كأن لم يكن سكر ولا خمر!!^(٢)

وروى البخاري عن أنس بن مالك قال: إني لقائم أسقي أبا طلحة وفلاناً وفلاناً إذ جاء رجل فقال: وهل بلغكم الخبر؟ فقالوا: وما ذاك؟ قال: حرّمت الخمر. قالوا: اهرق هذه القلال (جمع قلة وهي الجرة) يا أنس. قال: فما سألوها عنها ولا راجعوها بعد خبر الرجل^(٣).

(١) جريدة الحياة. لندن، الصادرة بتاريخ ٢٨ أغسطس ١٩٩٦م.

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج ٥، الطبعة الخامسة عشر ١٩٨٨م، (القاهرة: دار الشروق)، ص ٩٧.

(٣) محمد بن إسماعيل البخاري. صحيح البخاري، ج ٦، كتاب التفسير (بيروت: المكتبة الثقافية)، ص ١٠٤، حديث ١٣٩.

هكذا يكون الوازع الديني حاكمًا على تصرفات الإنسان وسلوكه، رغم سلطان العادة، وقوة الرغبة، وكمثال حديث نشير إلى قصة تحريم التبغ والتبناك في إيران سنة ١٣١٢ هـ حينما أعطى شاه إيران ناصر الدين القاجاري، امتياز شراء التبغ وتصنيعه لشركة إنكليزية، على حساب استقلال البلاد ومصصلحة اقتصادها، فأصدر المرجع الديني آنذاك الميرزا محمد حسن الشيرازي فتوى بتحريم التبغ والتبناك بيعًا وشراءً واستعمالًا، فالتزم بفتواه جميع أفراد الشعب الإيراني وكان عددهم يزيد على العشرين مليونًا، وكسرت كل نارجيلية وكل آلة تستعمل للتدخين، حتى إن نساء قصر الشاه كسروا كل نارجيلية في القصر، فلما طلب الشاه أن يؤتى له بنارجيلية على العادة، أخبروه أنه لم يبق في القصر ولا نارجيلية واحدة؛ لأن المرجع الديني قد حرم ذلك!! مما اضطره إلى فسخ امتياز الشركة الإنكليزية^(١).

ونلاحظ كيف أن المتدينين يمتنعون في نهار شهر رمضان عن رغباتهم وعاداتهم في الطعام والشراب وسائر المفطرات التزامًا بالأمر الديني.

عند الشهوة

ومن أبرز الموارد التي يجب أن يتجلى فيها الوازع الديني، حينما تلح على الإنسان شهوة جامحة باتجاه الحرام كشهوة الجنس أو المال أو المنصب، فذلك هو محك التدين، ومعيار التقوى، هل يخضع لضغط الشهوة ويرتكب الحرام؟ أم يلجمها ويكبح جماحها خشية من الله؟

والقرآن الكريم يذكر لنا تفاصيل ما حدث لنبي الله يوسف، يوم كان عبدًا خادمًا في منزل امرأة عزيز مصر، وكان شابًا في ريعان الشباب، مكتمل

(١) السيد محسن الأمين. أعيان الشيعة، ج ٥، طبعة ١٩٨٦م، (بيروت: دار التعارف)، ص ٣٠٦.

الرجولة، رائع الفتوة، تدعوه إلى نفسها امرأة ذات منصب وجمال، وتهيب له كل الأجواء المساعدة، لكن الوازع الديني يقظ في نفسه يمنعه من الاستجابة، وإن عرضه امتناعه للسجن: ﴿قَالَ رَبِّ السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [سورة يوسف، الآية: ٣٣].

وفي موقع القوة

والمورد الآخر: إذا كان الإنسان في موقع قوة تجاه آخرين، فإن ذلك قد يسوّغ له ويجفزه لاستخدام قوته بغير حق معهم، وهنا يحتاج إلى التقوى والوازع الديني، ليتعامل مع الخاضعين لسلطته باحترام وإنصاف، فالرجل في عائلته، والرئيس مع مرؤوسيه، والحاكم مع رعيته، كلهم معرضون لهذا المنزلق، ما لم يكن الله تعالى نصب أعينهم، وما لم يكن الوازع الديني حاضرًا في نفوسهم.

لذلك يوصي الإمام علي عليه السلام مالك الاشر حينما ولاه مصر قائلاً: «وأشعر قلبك الرحمة للرعية، والمحبة لهم، واللطف بهم، ولا تكونن عليهم سبغاً ضارياً»^(١). وفي عهد عمر بن عبد العزيز كتب إليه واليه على البصرة: إن أناساً من العمال قد اقتطعوا من مال الله، ولست أرجو استخراجهم منهم إلا أن أمسهم بشيء من العذاب، فإن رأى أمير المؤمنين في أن يأذن لي بشيء من ذلك فعلت.. فكتب إليه: العجب كل العجب من استئذائك إياي في عذاب بشر كأني لك جنة من عذاب الله، وكأن رضاي عنك ينجيك من سخط الله عز وجل، فانظر من قامت عليه البينة، أو أقرّ فخذها بما أقر، وأيم الله لأن يلقوا

(١) الشريف الرضي الموسوي. نهج البلاغة، الطبعة الأولى ١٩٦٧م، (بيروت: دار الكتاب اللبناني)، كتاب ٥٣.

اللّه عز وجل بخياناتهم أحب إلي من أن ألقى الله بدمائهم^(١). وكتب إليه وإل
آخر: إني قدمت الموصل فوجدتها من أكثر البلاد سرقةً ونهباً، فإن أذنت لي
أخذ الناس بالظنة، وأضربهم على التهمة، فعلت، ولن يصلحهم غير ذلك.
فكتب إليه: خذ الناس بالبينة وما جرت عليه السنة، فإن لم يصلحهم الحق فلا
أصلحهم الله!^(٢)

وقبل ذلك خاطب الإمام علي عليه السلام أهل الكوفة بقوله: «وإني لعالم بما
يصلحكم، ويقىم أودكم، ولكنني لا أرى إصلاحكم بإفساد نفسي»^(٣).

هذا هو عمق التدين، وجوهر الدين وحقيقته، أما إذا فقد الوازع الديني
أو ضعف، فإن مجرد الإيمان بالمعتقدات، أو أداء العبادات كمظهر، لا يعني
تديناً حقيقياً ولا يجدي أمام الله سبحانه وتعالى، فإنه ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ
الْمُتَّقِينَ﴾ [سورة المائدة، الآية: ٢٧]، ولفظة ﴿إِنَّمَا﴾ تفيد الحصر في اللغة العربية.

(١) عبد العزيز سيد الأهل. الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز، (بيروت: دار العلم للملايين)،
ص ١٤٨.

(٢) المصدر نفسه. ص ١٧٠.

(٣) نهج البلاغة. خطبة ٦٩.

التربية على محبة الناس

من دلائل عظمة الإسلام وصدق دعوته تربية أبنائه على محبة الناس،
مهما اختلفوا في أديانهم وأعراقهم وتوجهاتهم، وهذا النهج الإسلامي يتجلى
في كثير من المظاهر، نذكر منها ثلاثة:

الأول: النظرة الإنسانية

يعطي الإسلام أبنائه رؤية وثقافة تجعلهم ينظرون إلى كل الناس نظرة
احترام، ويعاملونهم على أساس المودة ومحبة الخير للجميع، بغض النظر عن
انتماءاتهم وأديانهم، وهذا واضح في آيات القرآن الكريم، الذي نصّ على
كرامة الإنسان، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [سورة الإسراء، الآية: ٧٠]،
وهذه الآية عامّة في دلالتها على تكريم الإنسان كإنسان دون النظر إلى انتمائه
ولونه ولغته ودينه.

ورود عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الخلق كلهم عيال الله، فأحبهم إلى
الله أنفعهم لعياله»^(١).

إن هذه الرؤية الدينية المتقدّمة في نظرتها للإنسان قد تشوّشها وتشوّهها

(١) كنز العمال ج٦ ص ٣٦٠ حديث ١٦٠٥٦، ومثله في وسائل الشيعة ج١٦ ص ٣٤٤
حديث ٢١٧٢٠.

بعض النظريات الخاطئة ومحاولات التحريف الذي يطال الديانات، باتجاه الازدراء للآخرين واحتقارهم والنظر إليهم بدونية، كبعض الآراء التي تنظر للمرأة باحتقار وتنسب إلى الدين، أو الازدراء بمن ينتمي إلى دين ومذهب مخالف وينسب ذلك إلى الدين، إن هذه التوجّهات تخالف روح وتعاليم الإسلام الذي ينظر للإنسان باحترام وتكريم.

الثاني: منع الإساءة والعدوان

إذ لا يجوز في شريعة الإسلام الاعتداء على أحدٍ مهما كان لونه ودينه ومذهبه إلا إذا كان معتدياً ففي هذه الحالة يشرع للمسلم الدفاع عن نفسه لردّ العدوان، يقول تعالى: ﴿فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [سورة البقرة، الآية: 193]، ويقول تعالى: ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ [سورة البقرة، الآية: 194]، ويقول تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [سورة البقرة، الآية: 190].

وقد جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال في تعريفه للمسلم: «المسلم من سلم الناس من يده ولسانه»^(١)، فالحديث صريح بأن المسلم الحقيقي من لا يعتدي على الآخرين بأيّ اعتداء معنوي بتجريح أو إهانة، أو اعتداء مادي من ضرب ونهب.

وقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «من آذى ذمياً فأنا خصمه ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة»^(٢).

-
- (١) الإمام أحمد بن حنبل. مسند الإمام أحمد، ج ٢، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ، (بيروت: عالم الكتب)، ص ٧٢٢، حديث ٧٠٨٦.
- (٢) جلال الدين السيوطي. الجامع الصغير، ج ٢، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ، (بيروت: دار الفكر)، ص ٥٤٦، حديث ٨٢٧٠.

الثالث: الإحسان إلى الناس

هناك تشجيع ودفع من الإسلام ليكون المسلم محسناً وباراً بأفراد المجتمع البشري، مهما كانت دياناتهم ومذاهبهم وهوياتهم، يقول تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [سورة المتحنة: الآية ٨]، والحديث الشريف المروي عن رسول الله ﷺ واضح في دلالة على هذا المعنى، حيث يقول ﷺ: «الخلق عيال الله، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله»، حيث عبر الحديث أن الخلق جميعاً هم عيال الله. ولم يحصر ذلك في المسلمين والمؤمنين.

وورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: سئل رسول الله ﷺ: عن أحب الناس إلى الله؟

فقال: «أنفعهم للناس»^(١). وعنه ﷺ أنه قال: «رأس العقل بعد الدين التودد إلى الناس، واصطناع الخير إلى كل برّ وفاجر»^(٢).

كما ورد عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «ابذل معروفك للناس كافة، فإن فضيلة المعروف لا يعدلها عند الله شيء»^(٣).

وقال رجل عند الإمام الحسين بن علي عليه السلام: «إن المعروف إذا أسدي إلى غير أهله ضاع» فقال الإمام الحسين عليه السلام: «ليس كذلك، ولكن تكون الصنعة مثل وابل المطر تصيب البرّ والفاجر»^(٤).

ومما ورد في ذلك عن الرسول ﷺ قوله: «اصطنع الخير إلى من هو أهله

(١) ميرزا حسين النوري الطبرسي. مستدرک الوسائل، ج ١٢، الطبعة الثالثة ١٩٩١م، (بيروت:

مؤسسة آل البيت لإحياء التراث)، ص ٣٩٠، حديث ١٤٣٧٥.

(٢) كنز العمال. ج ٨، ص ٩، حديث ٥١٧٤.

(٣) عيون الحكم والمواعظ، ص ٧٥.

(٤) الحسن بن علي بن شعبة الحراني. تحف العقول، الطبعة الخامسة ١٣٩٤هـ، (بيروت: مؤسسة

الأعلمي)، ص ١٧٦.

وإلى مَنْ هو غير أهله، فإن لم تصب من هو أهله فأنت أهله»^(١).

وهناك حادثة يرويها أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام هو معلى بن خنيس قال: «خرجت مع الإمام ليلاً ومعه جراب من خبز، فأتينا ظلة بني ساعدة، فإذا نحن بقوم نيام، فجعل الإمام الصادق عليه السلام يدسّ الرغيف والرغيفين عند رأس كل واحد منهم حتى أتى على آخرهم، ثم انصرفنا، وقلت: جعلتُ فداك يعرف هؤلاء الحق؟ فقال عليه السلام: لو عرفوه لو أسيناهم بالدقة (الملح)»^(٢).

وفي رواية عن مصادف (من تلامذة الإمام الصادق عليه السلام) قال: كنتُ مع أبي عبد الله عليه السلام بين مكة والمدينة فمررنا على رجل في أصل شجرة وقد ألقى بنفسه، فقال: «ول بنا إلى هذا الرجل فإني أخاف أن يكون قد أصابه العطش»، فمَلْنَا إليه فإذا برجل من الفراشين طويل الشعر، فسأله: «أعطشان أنت؟»، فقال: نعم، فقال لي: «انزل يا مصادف فاسقيه»، فنزلتُ وسقيته ثم ركبنا وسرنا، فقلتُ: هذا نصراني، أفتتصدق على نصراني؟! فقال عليه السلام: «نعم، إذا كان في مثل هذا الحال»^(٣).

من هذه النصوص الشريفة وغيرها نستنتج أن نهج الإسلام هو التربية على محبة الناس، كل الناس.

ولهذا، فإن مما اتفق عليه فقهاء المسلمين جميعاً جواز الوقف لخدمة غير المسلمين، كأن يوقف أحد المسلمين وقفاً ليصرف على فقراء اليهود أو النصارى، أو على تعليم أولادهم أو على علاج مرضاهم، وغير ذلك من

(١) الشيخ الصدوق. محمد بن علي بن بابويه القمي. عيون أخبار الرضا، ج ٢، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ، (بيروت: مؤسسة الأعلمي)، ص ٣٨، حديث ٧٦.

(٢) محمد بن يعقوب الكليني. الكافي، ج ٤، طبعة ١٤٠٥هـ، (بيروت: دار الأضواء)، ص ٨.

(٣) محمد بن الحسن الحر العاملي. وسائل الشيعة، ج ٩، الطبعة الأولى ١٩٩٣م، (بيروت: مؤسسة آل البيت عليه السلام لإحياء التراث)، ص ٤٩، حديث ١٢٣٥٠.

المنافع العامّة لهم.

ولا يقتصر جواز الوقف على غير المسلم المسلم بل يجوز حتى على الحربي كما هو رأي بعض الفقهاء كالسيد اليزدي في ملحقات العروة الوثقى.

نهج التعصّب

هذه الرؤية الإسلامية للتعامل مع الآخر، نستنتجها من نصوصه الشريفة، ولكن مما يؤسف عليه أن هذه الرؤية والتربية الإسلامية السامية لا نجد لها رواجاً في بعض أوساط المجتمع الإسلامي، بل على العكس من ذلك أصبحنا نسمع بين فينة وأخرى تلك الصيحات التي تدعو إلى نشر الأحقاد والضغائن والكراهية بين بني البشر، وبدل أن تنتشر في أوساط المسلمين ثقافة المحبّة والتسامح سادت في بعض أوساطهم ثقافة التحريض على كراهية الآخرين، فنسمع بعض الأحيان في خطب الجمعة دعوات على كل اليهود والنصارى بالهلاك والدمار، مع أن الإسلام لا يعادي أصحاب دين بأجمعهم، وإنما يعادي التصرف والسلوك العدائي تجاه المسلمين.

فليس من الانصاف أن نربيّ جمهور المسلمين على كراهية غير المسلم بسبب بعض المواقف التي تتبناها جهات من الممتين لهذه الديانات. ومن جهة أخرى، كيف يعطي المسلمون صورة مشرقة عن هذا الدين للآخرين، إذا كانوا يعلنون للآخر الكراهية والحقد والدعاء عليه بالشر.

مسلمون ينشرون الأحقاد فيما بينهم

وهذه التعبئة لم تقتصر على غير المسلم، بل انجرّ الأمر إلى المخالف في المذهب، فهناك تعبئة وتحريض على الكراهية بين المسلمين مع بعضهم البعض، عبر مختلف الوسائل، كالفتاوى وخطب الجمعة والمنشورات، وفي بعض مناهج التعليم.

ولذلك أصبح المسلمون فيما بينهم يعيشون جوًّا تسوده الضغائن والأحقاد وذلك بسبب التعبئة الطائفية والمذهبية التي يمارسها كل طرف تجاه الآخر.

بل نجد أن المسألة انجرت لتصل إلى تعبئة وتعبئة مضادة بين أصحاب المذهب الواحد، حين تتقاسمه التوجّهات والتيارات المختلفة، والشواهد على ذلك كثيرة، وآخرها ما حدث في باكستان في مدينة كراتشي، حين تجمع ما يقرب من ٥٠,٠٠٠ من جماعة اسمها (تحريك السنّة) - وهي على الطريقة البريلوية - في حديقة عامّة للاحتفال بالمولد النبوي الشريف، فاقترح الجموع شاب انتحاري يبدو أنه من التوجه الذي يرى أن مثل هذه المظاهر من البدع، فقتل في هذه الحادثة ٥٧ وأكثر من ١٠٠ جريح، وكان من بين المصابين زعيم الجماعة مولانا عباس قادري (١٢/٤/٢٠٠٦م)^(١).

ونجد في الأوساط الشيعية تجري بعض الحالات من التعبئة ضد الآخر المخالف في الرأي والانتماء المرجعي، حيث تتحرك في هذا المجال الفتاوى التعبوية والمنشورات المحرّضة والخطاب المنبري المنفّر، مما يشنّج العلاقة بين أفراد المجتمع، وقد يصل الحال لأن تفسد العلاقة بين أفراد الأسرة الواحدة بسبب هذا الخطاب التحريضي.

التحريض الطائفي في مناهج التعليم

هذا التحريض على الكراهية يوجد أوضاعًا سلبية في مجتمع المسلمين، خصوصًا عندما يوجّه للصغار، ويكون ضمن مناهج التعليم للمراحل التعليمية المبكرة، فننشئ أطفالنا تنشئة عنصرية طائفية.

إن هذه المناهج التحريضية مدانة، خصوصًا عندما تحتوي على عبارات

(١) الصحف ووكالات الأنباء.

التكفير والتبديع والالتهام بالشرك والضلال، فهذا يخرج لنا جيلاً معبأً طائفيًا مليئًا بالحقود والكراهية للطرف الآخر.

والأدهى من ذلك أن يمارس بعض معلمي المواد الدينية عملية التبشير المذهبي في المجتمعات التي تختلف معهم مذهبياً، أو أن يقوموا بالتحريض على الكراهية فيما بين الطلاب في المجتمعات المتداخلة مذهبياً.

إن هذه التربية تنعكس على علاقة المواطنين مع بعضهم البعض بسبب انتماءاتهم المتعددة، فنجد الطلاب والطالبات في الجامعات والكليات يحذرون من أن يقيموا علاقات طبيعية مع بعضهم بسبب هذه التربية.

الجمهور هو الضحية

إن أجهزة التعليم والمؤسسات الدينية والأهالي في تربيتهم لهذا الجيل يتحمّلون مسؤولية كبيرة، لذلك على الذين يملكون مواقع خطابية وإعلامية أن يتنبهوا وألا يقعوا في مسألة التحريض الطائفي والمذهبي، فعندما يمارس الخطيب دور المدافع عن العقيدة ويعبئ جمهوره ضد الطرف الآخر والطائفة الأخرى، فإن هذا الجمهور هو من يصبح ضحية هذه التعبئة.

فالشباب والشابة يتواجدون في مناطق الاحتكاك مع هذه الأطراف، سواءً في الجامعة أو أماكن العمل، فحينما يسيء أحدهم للآخر تفسد العلاقة ويعيشون حالة من الاحتقان والتشنج الطائفي، بينما لا يتحمّل ذلك الخطيب الذي عبأ وحرّض أيّ مسؤولية أو تبعة.

يجب على المجتمع ككلّ أن يعارض أيّ تحريض وتعبئة طائفية، سواءً في وسط السنة أو الشيعة، فذلك لا يخدم إلا العدو الذي يتربّص بنا الدوائر.



رعاية النظام والقانون

لكل فرد من أبناء البشر حاجاته ومصالحه ورغباته، كما تختلف آراؤهم وتوجهاتهم، ومن الطبيعي أن تختلف الرغبات والتوجهات، فقد لوحظ الاختلاف حتى في حال التوائم السيامية، حيث عاشت فتاتان إيرانيتان ملتصقتان ببعضهما ثمانية عشر عامًا قبل أن تجرى لهما عملية فصل ماتتا على إثرها، وكانتا مختلفتين في بعض الرغبات والآراء.

وحين يعيش جمع من الناس في محيط واحد، فإن اختلاف الرغبات والمصالح والتوجهات قد يؤدي إلى التعارض والتضارب، فإذا ترك الأمر للغلبة والقوة، فإن حياة المجتمع ستحكمها شريعة الغاب.

لذلك أدرك الإنسان من بداية وعيه بالحياة الاجتماعية ضرورة وجود نظام وقانون ينظم حياة المجتمع، ويضبط العلاقة بين قواه وأفراده.

وعرف تاريخ البشر ألوأناً من الأنظمة والقوانين المختلفة المتفاوتة في قربها وبعدها من العدالة والحق. لكنها كانت تلبى حاجة أساس في أصل وجودها، فمهما كانت نسبة الخطأ والانحراف في النظام إلا أن ذلك أفضل من عدم النظام الذي يعني الفوضى والاضطراب، وتبقى مسؤولية المصلحين في كل مجتمع للسعي لتغيير القوانين بالاتجاه الصحيح والأفضل، ولتلافي ثغراتها وتصحيح أخطائها، وتقويم معوجها.

وقد تتعدى الحاجة إلى النظام الجانب الاجتماعي في حياة الإنسان، إذ إنه في بُعد حياته الشخصية وفي علاقته مع ربه ومع الطبيعة التي يعيش في أحضانها، يحتاج إلى نوع من التنظيم والتقنين.

يقول السيد الشيرازي في كتابه (القانون) من موسوعته الفقهية:

«إنها احتاج الإنسان إلى القانون لأنه إنسان، له حوائج فردية واجتماعية في مختلف الجوانب. وليس كما قال الإغريق: لأنه مدني بالطبع فيحتاج إلى تحقيق متطلبات الاجتماع، والمتطلبات لا يمكن جعلها في المسار الصحيح إلا بالقانون. وذلك لأنه لو فرض أن إنساناً عاش وحده في غابة أو كهف، لاحتاج أيضاً إلى القانون الذي ينظم سلوكه مع نفسه، مضافاً إلى القانون الذي ينظم سلوكه مع خالقه ومع الكون بصورة عامة.

وبذلك ظهر: أن قول بعض الفلاسفة: أنه لو كان المجتمع مثالياً مكوّناً من الفلاسفة لم يحتج إلى القانون، غير تام.

كيف؟ ولنفرض أن كل أولئك الفلاسفة كانوا في أعلى درجات العدالة والنزاهة، أليس اختلاف الآراء يوجب بينهم التخاصم والتدافع؟ أوليس ذلك بحاجة إلى قانون يقرره من هو فوقهم - إذا اعتقدوا به - أو يقرره أكثريتهم، إذا كانوا يرون ذلك، أو حسب القرعة، أو أي ميزان آخر يتفقون عليه؟

إذن، فالقانون لازم لتنظيم شؤون المجتمع، مهما كان المجتمع بدائياً، أو متوسطاً، أو مثالياً وفي غاية السمو والرفعة، حيث أن اللازم أن يكون هناك مقياس لسير الفرد والاجتماع في مختلف جوانب الحياة»^(١).

(١) السيد محمد الحسيني الشيرازي. الفقه - القانون، الطبعة الثانية ١٩٩٨ م، (بيروت: مؤسسة البلاغ)، ص ١٠٣-١٠٤.

الالتزام بالقانون

يعتمد استقرار المجتمع، وانتظام أموره، وحسن العلاقة بين أطرافه، على مدى التزام أبناء المجتمع بالقانون السائد بينهم.

ذلك أن مخالفة القانون تسبب التصادم بين الرغبات، والتجاوز على الحقوق، وتعطيل المصالح، ووقوع الأضرار والمضاعفات.

فمثلاً، مخالفة قوانين المرور تؤدي إلى الحوادث المروعة من إتلاف النفوس، وحصول الإعاقات، وخسارة الأموال.

وكذلك مخالفة أنظمة الصحة تسبب انتشار الأمراض، وتهديد حياة الناس، وهكذا الحال في سائر المجالات والجوانب. كما أن مخالفة القوانين تعني ضياع هيبة النظام وسيادة الانفلات والفوضى.

لذلك لا بد من وجود شعور واندفاع عند أبناء المجتمع بالالتزام بالقوانين ورعاية الأنظمة، حفظاً لمصالح الجميع.

إن البعض من الناس يحترم القانون حين يكون في مصلحته، ويتجاوزه حين يكون في صالح غيره، أو حين لا يجد مصلحة له في التزامه، وهذا خطأ كبير؛ لأن سيادة القانون مصلحة عامة تنعكس فائدتها على الجميع، ولأن عليه أن يتصور نفسه في الموقع الآخر، فهل يرضيه تجاوز الآخرين على مصلحته؟ وهناك من يحترم النظام إذا خاف العقوبة الرادعة، أما عند الأمن من العقاب أو تمكّن الفرار، فإنه يتجرأ على المخالفة والتمرد، وهذا يكشف عن خلل في النفسية والوعي.

وقد تكون للبعض اعتراضات على بعض الأنظمة والقوانين، أو عدم ثقة ورضا بالجهة التي أصدرتها، لكن ذلك لا يصح أن يكون مبرراً للمخالفة، بل يجب أن يكون دافعاً للعمل والسعي للتصحيح وتقويم معوج الأنظمة،

وتغيير جهة التشريع والتقنين، بالطرق والأساليب الممكنة المشروعة، وإلى أن يتحقق ذلك لا بد من رعاية الأنظمة والقوانين السائدة. كما هو واقع الحال في المجتمعات الديمقراطية حيث تحتج المعارضة على بعض القوانين، وتعرض عليها، وتقدم المشاريع البديلة، وتتحرك إعلامياً وسياسياً لتحقيق ذلك، لكن المعارضين يجدون أنفسهم ملزمين برعاية الأنظمة القائمة، وليس مقبولاً منهم مخالفتها.

نعم، قد تتبلور إدارة جمعية للتغيير والتصحيح، وقد تكون المخالفة للقانون ضمن وسائل العمل لتغييره وتصحيحه، كما هو الحال في برامج الإضراب والعصيان المدني التي تحصل في بعض البلدان. ولكن ذلك أيضاً يكون من خلال قانون، أو قيادة ذات مقبولية، وليس تصرفاً فردياً أو ممارسات اعتباطية.

وبالتالي، فلا يصحّ لفرد أو مجموعة مخالفة القوانين والأنظمة لموقف لهم تجاه السلطة أو ملاحظة لديهم على بعض القوانين. بالطبع، فإن المسلم لا يجري قانوناً يتصادم مع حكم شرعي لازم ما وجد إلى ذلك سبيلاً.

الكون وحاكمية النظام

آيات كثيرة في القرآن الكريم تلفتنا إلى النظام الصارم الذي يلفّ الكون، فالكون خاضع لنظام دقيق، كل ذرة فيه وجدت في مكانها بحساب، وعلاقتها مع ما سواها تجري بنظام دقيق. يقول تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [سورة القمر، الآية: ٤٩]. ويقول تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [سورة الرعد، الآية: ٨]. ويقول تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [سورة الطلاق، الآية: ٣]. ويقول تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾

* لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿سورة يس: الآيتان ٣٩-٤٠﴾.

هذه الآيات الكريمة وأمثالها، وما تؤكد من خضوع الكون والطبيعة لسنن ثابتة، وقوانين صارمة، يلحظها الإنسان ويشاهدها، ويكشف له العلم كل يوم عن المزيد والجديد من تجلياتها، إنما تريد أن توجه الإنسان إلى التفكير في عظمة الخالق سبحانه، وإضافة لذلك، فإنها تستهدف صنع خلفية وأرضية في نفس الإنسان وعقله للالتزام بالنظام والقانون، في حياته الشخصية والاجتماعية.

وهذا ما تصرح به آيات أخرى تحذّر الإنسان من مخالفة الحدود الشرعية، وتحثّه على التقيد بها. يقول تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [سورة البقرة، الآية: ٢٢٩]. ويقول تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [سورة الطلاق: الآية ١].

العبادات والتربية على النظام

إذا تأملنا الأحكام التفصيلية للعبادات في الشريعة الإسلامية، فإننا نستنتج منها أنها تربي الإنسان المسلم على التزام النظام والقانون، فالصلاة مثلاً مطلوبة من الإنسان في أوقات محددة، لا تصح قبلها بلحظة، كما لا يجوز تأخيرها عن وقتها اختياراً ولو بلحظة واحدة.

وللصلاة أركانها وواجباتها التي لا يصح إهمال أو تجاوز شيء منها. وكذلك الصوم فإنه يجب في شهر معيّن (شهر رمضان)، وضمن وقت معيّن، من طلوع الشمس إلى الغروب، وليس مقبولاً تأخير الصيام دقيقة واحدة عن الفجر في مقابل تمديده ساعة بعد الغروب.

وفريضة الحج محددة بوقت مخصوص، ومكان مخصوص، ضمن مناسك

وأعمال مقننة، لا تحترقها رغبات الإنسان وأهواؤه، ولا يجوز له التهاون والتسيب في شيء من حدودها.

وكذا الحال في فريضة الزكاة التي تجب في نصاب معيّن، وبأحكام خاصة لا بد من مراعاتها.

كل ذلك يفترض أن يساعد على تربية الشخصية المنظمة الحريصة على التزام النظام والقانون، والبعيدة عن التسيب والمخالفة.

الرأي الفقهي

أفتى الفقهاء بوجوب رعاية الأنظمة والقوانين حفظاً لنظام حياة المجتمع، وحماية للمصلحة العامة، واحتراماً للحقوق المتبادلة بين الناس.

ولا يختصّ وجوب الالتزام بالقوانين وحرمة مخالفتها بالبلاد الإسلامية، بل إن المسلم مكلف بذلك حتى في البلاد غير الإسلامية، باعتباره قد ألزم نفسه برعاية الأنظمة القائمة فيها، من خلال تأشيرة الدخول الممنوحة له المتضمنة لذلك، إضافة إلى أصل احترام مصالح الآخرين وحقوقهم.

وكنموذج للرأي الفقهي نعرض لبعض فتاوى المرجع الديني السيد علي السيستاني أجاب بها عن أسئلة قدمت له ترتبط برعاية الأنظمة والقوانين، يقول السائل: هل يلزم المكلف الحاصل على فيزا الالتزام بقوانين البلد غير الإسلامي، بما في ذلك التقيّد بأمثال إشارات المرور وقوانين العمل وأمثالها؟

فأجاب سماحته: «إذا تعهد لهم - ولو ضمناً - برعاية قوانين بلدهم، لزمه الوفاء بعهد، فيما لا يكون منافياً للشريعة المقدسة. ومثل إشارات المرور يلزم التقيّد بها مطلقاً، إذا كان عدم مراعاتها يؤدي - عادة - إلى تضرر من يحرم

الإضرار به من محترمي النفس والمال»^(١).

وردًا عن السؤال التالي: توجد عبارات في بعض وسائط النقل تنص على عدم جواز التدخين فهل تجوز مخالفتها؟

أجاب السيد السيستاني: «إذا كان ذلك بمثابة شرط ضمنى على من يريد الركوب فيها، أو كان قانوناً حكومياً وقد التزم لهم برعاية القوانين الحكومية، لزمه العمل وفق شرطه والتزامه»^(٢).

وجواباً عن السؤال التالي: هل يجوز للمسلم أن يعطي معلومات غير صحيحة للدوائر الحكومية في أوروبا للحصول على مزايا وتسهيلات مالية أو معنوية، وبالطريقة القانونية لديهم؟
قال السيد السيستاني: «لا يجوز ذلك، فإنه من الكذب، وما ذكر ليس من مسوغاته»^(٣).

وسئل سماحته: هل يجوز الغش في المدارس الرسمية في أوروبا؟ وهل يجوز الغش في المدارس الأهلية إسلامية أو غير إسلامية؟
فأجاب: «لا يجوز الغش في شيء منها»^(٤).

وعن مثل هذه الموارد سُئل فقهاء آخرون فكانت إجاباتهم وفتاواهم تؤكد أهمية رعاية القانون والنظام في أي بلد ومجتمع.

فقد وُجّه للمرجع الديني الراحل السيد محمد رضا الكلبايكاني رحمه الله السؤال التالي: في الدول الكافرة أو التي لا تحكم بالإسلام هل يجوز مخالفة

-
- (١) السيد علي الحسيني السيستاني. الفقه للمغترين، الطبعة الثالثة ٢٠٠٢م، (قم المقدسة: مكتب السيد السيستاني)، مسألة ٢٣٥.
 - (٢) الفقه للمغترين. مسألة ٢٣٤.
 - (٣) المصدر نفسه. مسألة ٢٣٨.
 - (٤) المصدر نفسه. مسألة ٢٣٣.

النظام العام مع أمن الضرر؟

فأجاب: «لا يجوز ذلك»^(١).

ولزوم رعاية النظام والقانون في مختلف الدول بغض النظر عن دينها أو نمط حكمها هو رأي السيد الخوئي أيضًا، وقد أجاب رحمته عن السؤال التالي: هل حكمكم بعدم جواز مخالفة النظام في الدول الكافرة مبني على الاحتياط أم فتوى؟

فقال: «هذا الحكم فتوى، وليس باحتياط»^(٢).

وعلى هذا الموقف يؤكد المرجع الديني الشيخ محمد الفاضل اللنكراني حيث أجاب عن السؤال التالي: هل يجب على المؤمنين التقيّد بجميع قوانين مثل هذه الدول سواء مثل نظام السير، وحركة السيارات والآليات أو غيره، من قبيل منع بعض التجارات ببعض الأشياء، أو التقيّد بنظام تحديد أسعار السلع، وعدم التخلف عن دفع ضرائب ونحو ذلك؟

أجاب بقوله: «الظاهر هو الوجوب»^(٣).

وحين يفتي الفقهاء بوجوب رعاية النظام والقانون فإنهم يسيرتهم العملية يقدمون نموذجًا للالتزام بهذه الفتوى. فقد أفرد أحد الباحثين في حياة الإمام الخميني رحمته فصلًا كاملًا في كتابه عنه تحت عنوان (رعاية القانون) سجّل فيه عددًا من المشاهد والمواقف التي تظهر التزامه رحمته برعاية النظام والقانون في ظل مختلف الحكومات، نقتطف منها ثلاثة نماذج:

يقول أحد مرافقيه من العلماء: كنت ذات ليلة عند الإمام الخميني في

(١) السيد حسين الحسيني. أحكام المغتربين، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ، (طهران: مركز الطباعة والنشر للمجمع العالمي لأهل البيت)، مسألة ١٢٤٤.

(٢) المصدر نفسه. مسألة ١٢٤٦.

(٣) المصدر نفسه. مسألة ١٢٥٧.

النجم إذ جاءه أحد الطلاب وسأله في مجلسه: هل يمكن شراء طابع قيمته ثمانية ريالات بريالين والامتناع عن دفع بقية المبلغ؟ فأجاب الإمام: هذا العمل غير جائز. ثم قال: حتى ولو كان ستالين حاكمًا فإن حفظ النظم من أهم الواجبات^(١).

من الخصوصيات البارزة للإمام الخميني أنه حتى في دولة الكفر كان يراعي الحقوق والقوانين الاجتماعية لذلك المجتمع، ومن ذلك حينما كان في باريس، فقد جمع الأخوة مألًا واشتروا نعجة وذبحوها خلف فناء كان قد جاء الإمام إليه لأجل الصلاة، فهيئوا طعامًا في ليلة عاشوراء، فأرسلوا مقدارًا من اللحم إلى منزل الإمام. وكان في فرنسا قانون يمنع ذبح أي حيوان خارج المسلخ رعاية للمسائل الصحية، وعندما أطلع الإمام على هذا القانون قال: لما كان هذا مخالفًا لقانون حكومة هذا البلد فإني لن آكل من هذا اللحم^(٢).

ومرة احتاج الإمام الخميني لمراجعة كتاب كان موجودًا في مكتبة حسينية جماران الملاصقة لمقر إقامته في طهران، التي يستقبل فيها الناس، فطلب من ابنه أن يأتيه بالكتاب، فأخبره ابنه السيد أحمد أن قانون المكتبة يمنع إخراج الكتاب منها، ويسمح بالمطالعة في المكان نفسه. فردّ الإمام فورًا أنه لا بد من الالتزام بقانون المكتبة وعدم إخراج الكتاب، وطلب أن يجلب له الكتاب من مكان آخر^(٣).

لماذا التساهل في رعاية النظام؟

في الدول المتقدمة والمجتمعات المتحضرة ترى هناك التزامًا عامًا عند

- (١) غلام علي رجائي. قياسات من سيرة الإمام الخميني - القيادة، ٢٠٠٥م، (بيروت: الدار الإسلامية)، ص ٣٢٦.
- (٢) المصدر نفسه. ص ٣٢٧.
- (٣) قياسات من سيرة الإمام الخميني - القيادة. ص ٣٢٨.

المواطنين برعاية الأنظمة والقوانين، والمخالفات التي تحصل لا تصل إلى مستوى الظاهرة العامة. بينما في مجتمعات الدول النامية وبلاد العالم الثالث، تجد أن مخالفة القوانين تمثل ظاهرة عامة، وعادة ما يستصعب الناس الالتزام بالقانون إلا إذا اضطروا إلى ذلك.

إن هناك أسباباً وعوامل تساعد على التزام الناس بالنظام، ومن أهمها ما يلي:

١. مشاركة الناس في صنع القوانين والأنظمة، فحين تكون هناك مشاركة شعبية عبر نظام الانتخابات واختيار الممثلين لمؤسسات صنع القرار، فإن رضا الناس عن القوانين، وشعورهم بأنها تمثل رأيهم وتخدم مصالحهم، يعتبر عاملاً أساسياً في الالتزام والتطبيق.

٢. القيادات القدوة: فحين يرى الناس التزام قياداتهم وكبار رجال مجتمعهم بالقوانين والأنظمة، فإنهم سيندفعون لتطبيقها، أما حين تسود المحسوبيات، ويصبح النافذون فوق القانون، فإن هيبة القانون وقيمته تسقط في نفوس عامة الناس.

٣. الرقابة والردع: إن وجود نظام للردع يحمي القانون ويمنع الجراءة على اختراقه ومخالفته، كما أن الرقابة الصارمة، وإتاحة المجال لتسليط الأضواء على واقع سير الأنظمة والقوانين، له دور كبير في ضمان التنفيذ والتطبيق. وهذا ما نراه في الدول المتقدمة، بوجود مؤسسات للرقابة والمحاسبة، وأجهزة قضائية مستقلة، وإعلام حرّ يقتنص أيّ خطأ وخاصة على الجهات النافذة، وتنافس سياسي يجعل كل جهة تبحث عن مخالفات الجهة الأخرى، مما يشكل روادع وكوابح للحالات

تجاوز القانون.

بينما في العالم الثالث هناك تسيّب وتساهل يتيح الفرصة لحالات الفساد وتجاوز الأنظمة والقوانين.

٤. ثقافة الالتزام بالقانون: إن التربية على رعاية النظام والقانون يجب أن تبدأ من المحيط العائلي، ولما هج التعليم وأجواء الدراسة دور كبير في توجيه المواطن لاحترام النظام، كما أن وسائل التثقيف والإعلام تتحمل جزءاً مهماً من مسؤولية التوجيه لرعاية النظام والقانون.

وعلماء الدين بما لهم من موقعية وتأثير عليهم أن يبينوا للناس البعد الشرعي لمسألة التزام القوانين. فكما يلتزم المسلم بأحكام صلاته عليه أن يلتزم بأنظمة المرور، وكما يجرم الإخلال بأحكام الصوم يجرم تجاوز القوانين التي تنظم شؤون المواطنين.

إن للتوعية والتثقيف دوراً محورياً على هذا الصعيد، وإن مجتمعاتنا بحاجة إلى روح النظام وأخلاقية الالتزام، لنحفظ مصالحنا العامة، ولنرتقي إلى مستوى تعاليم ديننا الحنيف، وحتى لا نتخلف أكثر عن ركب المجتمعات المتحضرة.



رؤية شرعية حول تساهل الموظفين

يعيش الإنسان ضمن مجتمع، وحاجاته متداخلة مع الآخرين، فلا يستطيع أن يقوم بكل شؤونه بمفرده، وإنما هناك آخرون يدخلون في دائرة تنظيم شؤونه وتسيير أموره، كما يدخل هو في دائرة الآخرين. لذلك تحصل هناك اتفاقات (عقود) بين الناس، إذ يلتزم كلٌّ منهم بشيءٍ تجاه الآخر، فالبيع والإيجار من العقود.

وقد يكون الاتفاق بين شخصين، وقد يكون مع جهة اعتبارية كالحكومة، كما قد يكون الطرف الآخر مؤسسة أو شركة، فلكي تدير الدولة شؤون البلاد تنشئ وزارات ومؤسسات وأجهزة للدفاع والتعليم والصحة وسائر المجالات، ويعمل فيها موظفون ضمن نظام وظيفي إداري يمثل اتفاقاً وعقداً ملزماً. كل هذه العقود يجب الوفاء بها، لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [سورة المائدة، الآية: 1].

العقود: جمع عقد، والعقد في اللغة ربط طرفٍ بآخر ربطاً وثيقاً، ومنه عقد الحبال والخيط وما أشبهه. وتُستعمل اصطلاحاً لأي التزام متبادلٍ بين طرفين.

الآية الكريمة تقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الخطاب للمؤمنين، ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ كل اتفاقٍ يحصل بين طرفين يجب الوفاء به. أو فوا: من وفى، وكلمة

وفي تعني إنهاء الشيء بتمامه.

فالآية تأمر المؤمنين بالالتزام بتمام العقود دون إنقاصٍ لأي شيءٍ من أي عقدٍ بين أي طرفين.

حضارات الأمم إنما تتقدم عن طريق أخلاق الالتزام المتبادل، فإذا التزم كل طرفٍ بما عليه تجاه الطرف الآخر تتقدم الأمة، أما إذا كان هناك تسيبٌ في الالتزام بأن يكون هناك نكثٌ للاتفاقات المتبادلة، فإن الأمة التي تسودها هذه الحالة لا تكون حرةً بالتقدم. وكذلك عندما يكون الوفاء منتقصاً، فإنه يُعبر عن أخلاقية سيئة.

وقد أصبحت هناك مقاييس ومعايير دولية لرصد نسبة التسيب الوظيفي والإداري في دول العالم، واعتباره من مؤشرات تقويم التنمية والتقدم في البلدان.

القرآن الكريم يعتبر الوفاء بالاتفاق (العقد) مظهرًا من مظاهر الإيمان: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾، فيما أنكم مؤمنون يجب أن يكون هناك وفاءٌ بالعقود.

وقد أذاعت المحطات الفضائية حديثاً لرئيس الوزراء الصهيوني في أمريكا متحدثاً عن الاتفاقيات التي تحصل مع العرب، وكان مما قاله: إن الاتفاقيات التي تكون مع العرب لا تُساوي قيمة الورق الذي تُكتب عليه. بالطبع، فإن هذا التصريح استفزازي عدواني، لكنه يُعبر في جانب منه، خاصةً فيما يرتبط بما يجري في داخل الدائرة العربية؛ لأن العرب مضطرون للالتزام بما يجري بينهم وبين الآخرين، لعدم وجود الجرأة على النقض. ولكن هذا الكلام يُعبر عن جانبٍ من الحقيقة بما يحصل في داخل الدائرة العربية، ولذلك تجد الكثير من الاتفاقيات التي تحصل بين الدول العربية تُطوى صفحاتها وكأن شيئاً لم

يكن. وكذلك الحال بين الفئات المختلفة، والأطراف المتنوعة.

أولاً: يجب الوفاء بالعقد وإن كان الطرف الآخر ليس مسلماً، فقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «لا دين لمن لا عهد له»^(١). وقال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «ثلاثٌ لم يجعل الله لأحدٍ فيهن رخصة: أداء الأمانة إلى البر والفاجر، والوفاء بالعهد إلى البر والفاجر، وبر الوالدين برّين كانا أو فاجرين»^(٢).

ثانياً: يجب الوفاء بالعقد سواءً كان فيه منفعة أو مضرة.

ثالثاً: يجب الوفاء بالعقد في حال القوة أو الضعف.

الوظيفة تعاقداً ملزم

ما معنى أن يكون الإنسان موظفًا؟ يعني وجود عقد بينه وبين الجهة التي يعمل لديها، وهذا العقد يحتوي بنودًا، قد تكون مكتوبة ضمن العقد، وقد تكون ضمنية. هذه الوظيفة تتطلب من الموظف التزامًا بدوام معين، وبعملٍ مخصص. فلا يجوز للموظف أن يخلّ بشيءٍ من بنود الاتفاق بينه وبين الجهة التي يعمل لديها.

يقول أحد العلماء: «في المجتمعات الأخرى يكون العقد بين طرفين، أما في المجتمع الإيماني هناك طرفٌ ثالث وهو الله سبحانه وتعالى».

من أهم المشاكل التي تُعاني منها المجتمعات في العالم الثالث ما يُسمى بـ (التسيّب الإداري)، أو (الفساد الوظيفي الإداري).

الدولة لها أجهزة ومؤسسات، وعبر هذه المؤسسات تكون خدمة المواطنين، وتسيير أمورهم، وتحتضن هذه المؤسسات مجموعة من الموظفين،

(١) مستدرك الوسائل، ج ١٦، ص ٩٧، حديث ١٩٢٦٤.

(٢) وسائل الشيعة، ج ٢١، ص ٤٩٠، حديث ٢٧٦٦٩.

وهناك عقدٌ بين هؤلاء الموظفين والدولة، وبالتالي يجب الالتزام بجميع بنود العقد، ولا يصح الإخلال بشيءٍ من مؤدّى العقد.

في دوائر الدولة غالبًا ما يكون هناك تسيّب وظيفي إداري، فلا يكون هناك التزام بوقت الدوام (بدايته وانتهائه وأثنائه).

وقد كثر الحديث حول هذا الموضوع في الصحف وغيرها من الوسائل الإعلامية، ومؤداه وجود حالة من عدم الالتزام الوظيفي لدى الكثير من الموظفين في الدوائر الحكومية، حيث يجد البعض نفسه مضطّرًا للتقيّد بالأنظمة والقوانين في حال وجود رقابة، أما إذا سنحت الظروف للتسيّب وعدم الالتزام فلا مانع من ذلك. وهذا مؤشّرٌ خطيرٌ يهدد تقدم الوطن.

وينبغي التأكيد هنا على النقاط التالية:

أولاً: من الناحية الشرعية يجب على الإنسان الموظف الالتزام بجميع بنود الاتفاق بينه وبين الجهة التي يعمل لديها، وأي خلل هو مسؤول عنه شرعًا.

ثانيًا: مقابل الوقت المهدور من الالتزام الوظيفي هناك إشكال شرعي فيما يُقابلة من الراتب، إلا إذا كان هناك رضًى وموافقة من الجهة المسؤولة.

ثالثًا: ينبغي أن يشعر الجميع بالمسؤولية تجاه مصالح المواطنين وتقديم الوطن، باعتبارنا جميعًا شركاء في الوطن، وما نجد من تخلفٍ في البلد فإن من أسبابه التسيّب وعدم الالتزام الوظيفي.

ومن المؤسف أن هذه البلاد التي حباها الله تعالى الخيرات والإمكانات والثروات، ومع وجود العديد من المؤسسات التابعة للدولة، والشركات الأهلية، إضافةً إلى الميزانيات الضخمة التي ترصدها الحكومة لمختلف

الأجهزة، إلا أن المواطن يُواجه الكثير من المشاكل والخلل في الخدمات في المؤسسات المختلفة، ومن أسبابه الرئيسة هذا التسبب الإداري والإهمال الوظيفي.

فالمسؤولية تقع على الجميع، وبالخصوص الموظفين في أجهزة الدولة إذ يجب عليهم الالتزام بكامل الاتفاق بينهم وبين الجهة التي يعملون لديها، ولا يجوز الإخلال بأي بندٍ من بنود الاتفاق إلا إذا أُخلّ الطرف الآخر بالالتزام.

وكثيراً ما تجد المواطن يتذمّر لتأخر معاملته عند مراجعة دائرة أو شركة، وييدي انزعاجه إذا ما رأى تساهلاً من موظفي المستشفيات والمراكز الصحية، ولكنه شخصياً إذا كان موظفاً فقد يمارس الحالة نفسها التي ينتقدها عند الآخرين.

التسبب الإداري

يستخلص من تعريفات مفهوم التسبب الإداري بأنه: إهمال الموظف للواجبات المنوطة به، والمنصوص عليها في القوانين واللوائح والقرارات التي تنظم الوظيفة بشكل يؤدي إلى مردود سلبي على الإنتاجية وسير العمل. ويمثل الغياب كلياً أو جزئياً أهم مظهر من مظاهر التسبب، وقد يأخذ أكثر من صورة:

فقد لا يحضر الموظف أصلاً لمقر عمله، مفتعلاً بعض المبررات والأعذار كادعاء المرض أو الضرورات العائلية والاجتماعية. بينما هو في الحقيقة منشغل بأعمال أخرى.

وفي بعض الأحيان يقوم الموظف بالتحايل على النظام بأن يأتي لمقر عمله لغرض التوقيع في سجل الحضور والانصراف فقط.

وقد يخرج الموظف ضمن مهمة للعمل لكنه لا يعود بعد إنجازها؛ ويستهلك بقية الدوام خارج العمل تحت غطاء المهمة.

وبعض الموظفين لا يلتزمون بالحضور بداية وقت الدوام وإنما بعده بساعة أو أقل أو أكثر، وبعضهم يخرجون قبل نهاية الدوام.

والبعض يصرف من وقت دوامه الوظيفي لصالح أعماله الأخرى، أو في التحادث مع زملائه الموظفين، أو المكالمات الهاتفية.

إن كل هذه الصور تمثل إخلالاً في الالتزام الوظيفي؛ وتشكل مخالفة شرعية، كما أنها تضييع لمصالح المواطنين؛ وتراكمها ينتج هذه الحالة من التخلف في المجالات المختلفة.

استفتاءات شرعية

إن الالتزام بالعقد الوظيفي وحضور الدوام المقرر في العمل مسألة شرعية يجب أن يراعيها الإنسان المسلم، فكما يهتم بأن لا ينقص ركعة أو سجدة من صلاته عليه أن يحرص على عدم إضاعة أي وقت في دوام عمله الوظيفي.

مهما كانت الجهة التي يعمل عندها؛ سواء في مؤسسات دولة إسلامية أو غير إسلامية، وسواء كانت الحكومة عادلة أو غير عادلة، وكذلك الحال في الشركات الخاصة، بغض النظر عن أصحابها مسلمين أو غير مسلمين، وصالحين أو فاسدين، ما دام العمل الذي توظف لأجله لا يدخل في صنف المكاسب المحرمة.

سئل سماحة السيد السيستاني حفظه الله:

■ أيجوز للمسلم الموظف في مكتب خاص أو دائرة حكومية أو متعاقد على عمل ما بأجر بالساعات في البلدان غير الإسلامية، أن يتهرب من العمل بعض الوقت أو يتهاون أو يتباطأ متعمداً؟ وهل يستحق

كل الأجر؟

فأجاب: لا يجوز له ذلك، وإذا فعل فلا يستحق كل الأجر^(١).

وسئل السيد الخوئي رحمته الله:

■ لو كان الموظف يعمل في شركة كافرة فهل يجوز له التهرب من العمل؟ وهل يستحق كامل الأجرة؟

فأجاب: لا يصح ذلك؛ وإنما اللازم في استحقاق الأجرة الوفاء بما استؤجر عليه^(٢).

■ وسئل رحمته الله: هل يجوز تهرب الموظف من عمله أو الغياب بعض الوقت إذا لم يكن مسموحاً له؟ وهل يستحق الراتب كاملاً؟

فأجاب: لا يسمح التهرب بشيء مما استؤجر عليه، ولا يستحق معه تمام الأجرة إلا برضى المستأجر^(٣).

هكذا يربي الشرع أبناءه على أداء التزاماتهم والوفاء بعقودهم واحترام حقوق الآخرين ومصالحهم.

(١) السيد علي الحسيني السيستاني. الفقه الميسر، استفتاءات تتعلق بالدولة وأموالها، (بيروت: دار الأولياء)، ص ٣١٨، مسألة ١٥.

(٢) السيد أبو القاسم الخوئي. صراط النجاة، ج ١، الطبعة الثانية ١٩٩٥ م، (الكويت: مكتبة الفقيه)، ص ٢٥٨، مسألة ٧٠٦.

(٣) المصدر نفسه. مسألة ٧٠٧.



المؤسسات الصحية وخطورة المسؤولية

الدقة والإتقان مطلوب في أي عمل يقوم به الإنسان، وفي أي حركة يتحركها، ولكن كلما كان العمل أكثر أهمية وخطورة، كان الإتقان فيه أكثر إلحاحًا، ولعل من أهم الأعمال هي تلك التي ترتبط بحياة الناس وأرواحهم، مثل الطبابة والعمل في الشؤون الصحية. فإذا كان الذين يعملون في مختلف الأعمال يتعاملون غالبًا مع الأشياء والمواد، فإن الطبيب والجهات الصحية تتعامل مع أرواح الناس وحياتهم، ولذلك فإن الإتقان في مجال العمل الطبي أكثر ضرورة وإلحاحًا؛ لأن أي خطأ وأي تقصير أو تساهل قد يسبب إزهاقًا للأرواح، وقد يسبب معاناة دائمة، وقد أصبحت مسألة الأخطاء والإهمال في المجال الطبي مسألة مقلقة على المستوى العالمي. وتتفاوت البلدان في مساحة ودرجة هذا الإهمال، وهذه الأخطاء، فقد كشف تقرير أمريكي، سنة ١٩٩٩م، عن وفاة ٩٨ ألف أمريكي سنويًا، من دون مبرر، بسبب خطأ في تشخيص الأمراض، وكتابة الوصفات الطبية، أو في أسلوب تناول الأدوية. وأوضح أن الأمريكيين الذين يموتون بسبب هذه الأخطاء الطبية، يفوق عددهم أولئك الذين يموتون بسبب سرطان الثدي، أو حوادث المرور، أو مرض فقدان المناعة (الإيدز)^(١).

(١) جريدة الزمان. لندن، العدد ٤٩٦، الصادر بتاريخ الجمعة ٣/١٢/١٩٩٩م.

وهذا يحصل في أمريكا بالرغم من تطور القوانين والوسائل التي يفترض أن تقلل من هذه الأخطاء، فكيف بغيرها من البلدان الأخرى، ولعل الميزة في أمريكا وأمثالها وجود الإحصاءات والتقارير التي تكشف هذه الأمور، بينما يجري التعتميم عليها في بلدان أخرى، فالمشكلة إذن عالمية.

الطب مهنة إنسانية

يذهب علم النفس الاجتماعي إلى القول: بأن الذين يتعاملون مع الإنسان، هم أكثر ميلاً للتمسك بالقيم الإنسانية، والتحرر من قيم السوق والتجارة، من غيرهم من أصحاب المهن، التي تتعامل بالسلع في سبيل الربح، قبل أي اعتبارات أخرى.

والفطرة الإنسانية السويّة، تدفع الإنسان لإنقاذ حياة نظيره الإنسان، حينما تكون في معرض الخطر، دون الالتفات إلى أي اعتبار آخر. فمن يرى شخصاً يوشك على الغرق، أو مهتداً بالاحتراق، أو معرضاً لأي حادث خطير، أو يعاني من ظمأ قاتل، فإن ضميره ووجدانه لا يسمح له بإهماله والتفرج على هلاكه.

من هذا المنطلق، فإن صاحب الخبرة الطبية يشعر بمسؤولية إنسانية تجاه المريض. وقد تحدث الفقهاء المسلمون عن وجوب قيامه بمعالجة المريض لإنقاذ حياته، أو إنقاذ أي عضو منه مهدد بالتلف. واعتبروا أخذ الأجرة على العلاج أمراً جائزاً.

يقول الإمام الشيرازي: «فلا يجوز للإنسان أن يترك العلاج حتى يموت، أو حتى يعمى، أو حتى تشل يده مثلاً، وكما يحرم على الإنسان ترك نفسه حتى يهلك، أو يعطب طرفه، أو قواه، كذلك يجب على الطبيب أن يداوي الذي يهلك إن لم يعالجه الطبيب، ولكن له أخذ الأجرة، إذ لا دليل على لزوم

المجانية، فالجمع بين الحقين يقتضي وجوب العلاج بالأجرة، كما في سائر الصناعات الواجبة عيناً، أو كفاية.

والظاهر وجوب العلاج بالنسبة إلى مثل القوة والطرف، فإذا لم يعالجه قطعت يده، أو عميت عينه، وجب علاجه.

ويدل عليه ما رواه أبان بن تغلب عن الإمام جعفر الصادق (عليه السلام): كان المسيح (عليه السلام) يقول: إن التارك شفاء المجروح من جرحه شريك لجارحه لا محالة. إلى غيرها من الروايات^(١).

لكن ما تعانیه الإنسانية الآن، في ظل الحضارة المادية الجارفة، هو تحوّل مهنة الطب عند الكثيرين إلى حرفة تجارية بحتة، وإلى سوق حرّة تحكمها قيم السوق والربح كأى نشاط تجاري آخر.

أمريكا أنموذجاً

ونشير هنا إلى ما تتحدث عنه بعض التقارير حول أوضاع المؤسسات الصحية في أمريكا، كنموذج لهذه الظاهرة الخطيرة.

إن القرارات التي تتعلق بمسائل الحياة والموت، أخذت تنتقل من أيدي الأطباء والقيادات المسؤولة، إلى أيدي الشركات المعنية بالربح فحسب، والبيروقراطيين البعيدين عن معاناة المرضى، فسادت تلك العقلية التي أسماها الدكتور بول ستار بعقلية أو أخلاقية الشركة التجارية corporate ethos التي انتشرت انتشاراً واسعاً بين المستشفيات والمؤسسات الطبية في أمريكا، حتى أن محلي مبيعات الأسهم في الصناعة الطبية، أصبحوا يشيرون إلى المرضى على أنهم مصادر الدخل revenue bodies. إن مدخول الصناعة

(١) السيد محمد الحسيني الشيرازي. الفقه، ج ٩٠، الطبعة الثانية ١٩٨٧، (بيروت: دار العلوم)، ص ٧٤، ٧٥.

الطبية هو ترليون في السنة، تتلقى منها الشركات التي تملك المستشفيات ما يزيد على أربعمئة بليون دولار، ويتلقى الأطباء حوالي مئتي بليون، وتتلقى شركات الأدوية مئة بليون.

تبين من دراسة أجريت عام ١٩٩١ م على ٢٧٧ مستشفى أن ٤٠٪ منها رفضت استقبال مرضى نقلتهم سيارات الإسعاف بحجة الازدحام.

كما أظهرت الدراسات: أن أغلب المستشفيات لا تجري مراجعة مقبولة للعمليات التي تقوم بها، لتحكم في ما إذا كانت يجب أن تتم، أو تمت بالطرق الصحيحة.

وقد استدل بعض الباحثين على عدم أخلاقية نقابة الأطباء من خلال تحالفها مع شركات صناعة السجائر، ومن أوجه هذا التحالف أنها أدلت بشهادات في بعض الحالات، على أن هنالك ضرورة لمزيد من الأبحاث قبل التثبت من أضرار التدخين. وتبين في حالات أخرى، أن نقابة الأطباء الأمريكية، كانت تشتري أسهمًا في شركات صنع السجائر.

ثم أن كثيرًا من الأطباء يطلبون مزيدًا من الفحوصات ليس فقط للتأكد من تشخيصاتهم أو تجنبًا للتعرض للدعاوى القانونية، بل أيضًا بسبب ملكيتهم للمختبرات التي يرسلون المرضى إليها.

لقد تبين من دراسة في فلوريدا أن ٤٠٪ من أطباء هذه الولاية يملكون المختبرات التي يحيلون مرضاهم إليها، بل وجدوا أن الأطباء الذين يملكون مختبرات، يطلبون من المرضى إجراء ضعف الفحوصات التي يطلبها الأطباء الذين لا يملكون مختبرات خاصة بهم. وقد تبين من خلال دراسة تمت في ميتشيغان أن ستة آلاف طبيب يملكون أجهزة تصوير أمروا مرضاهم بإجراء اختبارات M. R. I بمقدار بلغ أربعة أضعاف الاختبارات التي طلبها الذين

لا يملكون مثل هذا الجهاز.

وعلى وجه التحديد توصل Neil Postmen في كتابه Technopoly إلى أن هناك ما يبرر قلق المرضى من التقارير التي تقدر أن ٤٠٪ من العمليات التي تتم في أمريكا غير ضرورية.

وهناك أخيراً شركات صنع الأدوية، وربما هي الأسوأ في مركب الصناعة الطبية التي تجيد مختلف وسائل الاحتيال. إن أرباح شركات صنع الأدوية هي في طليعة الشركات الخمسمائة الأكثر ربحاً في أمريكا.

وقد وجدت إحدى دراسات Public Citizen Health Research أن العديد من المواطنين المتقدمين في العمر يحصلون على وصفات طبية غير ضرورية كلياً، وأن الكثير من الأطباء يشعرون أنه من المتوقع منهم أن يعطوا مرضاهم وصفة طبية لدى انتهاء الزيارة، وأن الأسعار الإجمالية للأدوية الجديدة يزيد سعرها من ستة إلى ثمانية أضعاف كلفة إعدادها. وقد تبين أن بعض شركات الأدوية تغري بعض الأطباء بوسائل ملتوية بوصف أدويتها دون غيرها مع أنها ليست الأفضل والأقل كلفة^(١).

إذا كان هذا بعض ما يجري للشؤون الصحية في أمريكا، مع توفر مؤسسات الرقابة، ووجود الإعلام، وحالة التنافس التي تدفع كل جهة لإشهار أخطاء الجهة الأخرى، فماذا سيكون الوضع في سائر البلدان؟. نعم، يمكن القول إن المجتمعات التي تنخفض فيها درجة الجشع المادي، وتسود فيها أجواء القيم الأخلاقية هي أفضل حالاً وأقل سوءاً.

(١) حلیم بركات. في ظل قيم السوق الحرة هل ينتهي الطب كمهنة إنسانية؟ جريدة الحياة، ص ١٥، العدد ١١٦٥٧، الخميس ١٩ يناير ١٩٩٥م، ١٨ شعبان ١٤١٥هـ.

الإهمال والتقصير

كثيرة هي الحوادث التي تكشف عن حصول أخطاء طبية فظيعة. فكم من الذين فقدوا حياتهم بسبب التقصير والإهمال. نشرت بعض الجرائد خبراً عن مريضة أجريت لها عملية استئصال الزائدة وبقيت الآلام تعاودها، ثم تبين بعد الفحص أنهم نسوا منشفة داخل بطنها. وقد تسبب هذا الخطأ في مشكلة صحية اضطرتهم إلى استئصال جزء من المعدة مما سبب لها عاهة مستديمة^(١). وذكرت جريدة عكاظ أن شاباً عمره ٢٣ عاماً دخل مستشفى في جدة يشكو من التهاب في اللوزتين وبعد عدة ساعات انتقل من المستشفى إلى المقبرة^(٢). وكان سبب ذلك خطأ طبي أنهى حياته. وتحدثت جريدة اليوم عن مواطن دخل المستشفى لاستئصال المرارة فأصيب بتلف في الدماغ^(٣). ويحصل مثل هذا بين فترة وأخرى. وهناك أسباب للأخطاء الطبية منها:

■ **ضعف الكفاءة:** فالطبيب الذي يتصدى لبعض الحالات قد لا يتمتع بالكفاءة المطلوبة. وتزداد هذه الحالة عندما يلقي المستشفى بالمسؤولية على شركة تستقدم وتؤمن الأطباء، وقد تختار أدنى الأطباء أجره وراتباً، حتى تتمكن من تحقيق الأرباح بتوفير النفقات. والأعجب من ذلك أن بعض الأطباء الوافدين يتدربون على المرضى في بلادنا. فالطبيب حديث التخرج لا يمانع من قبول وظيفة براتب ضئيل، تمكنه من كسب الخبرة، ثم ينتقل بعد ذلك إلى بلده أو أي بلد آخر بشهادة الخبرة التي تساعده في الحصول على وظيفة أفضل. فتدني مستوى الكفاءة الطبية سبب رئيس من أسباب الأخطاء التي تقع وتسبب المشاكل. روي عن أمير المؤمنين

(١) جريدة الحياة. لندن، الصادرة بتاريخ ٢٨ / ١٢ / ١٤١٨ هـ.

(٢) جريدة عكاظ، جدة، الصادرة بتاريخ: ٢٦ ذو القعدة ١٤١٨ هـ، ٢٤ مارس ١٩٩٨ م.

(٣) جريدة اليوم، الدمام، العدد ٩٠٣٩، الصادر بتاريخ: الأحد ١٧ ذو القعدة ١٤١٨ هـ، ١٥ مارس ١٩٩٨ م.

علي عليه السلام: «يجب على الإمام أن يجلس الفساق من العلماء والجهال من الأطباء...»^(١).

■ **ضعف القدرة على استيعاب أعداد المرضى:** فلكل مستشفى ولكل طبيب حدود وطاقة في الاستيعاب. فمثلاً إذا كان الطبيب يتمكن من استقبال ٢٠ مريضاً يومياً، ودخل عليه ضعف العدد فإنه لا يتمكن من إنجاز عمله بإتقان. فكلما ضعفت القدرة الاستيعابية، وازداد الضغط على المركز أو على الطبيب، ضعفت القدرة على الأداء بالكفاءة المطلوبة. وقد تحصل هذه الحالة بسبب التقشف في الميزانية، أو بسبب سوء الإدارة أو لأسباب مختلفة.

■ **ضعف التجهيزات:** فكلما كان المستشفى مجهزاً ومزوداً بالمعدات اللازمة والمختبرات، تكون القدرة العلاجية أفضل. وعلى العكس فإذا كانت المعدات قديمة، أو معطلة، أو لا تكفي لاستيعاب الأعداد التي يستقبلها المستشفى، تضعف تبعاً لذلك الكفاءة، وتزداد الأخطاء. وقد يحدث أحياناً أن مصاباً في مستشفى ينقل إلى مستشفى آخر لأخذ صورة أو إجراء فحص لعدم توفر الأجهزة الكافية في المستشفى الأول، مع ما يحيط بعملية النقل من مخاطر واحتمالات، وقد يزداد الضغط على جهاز طبي واحد في منطقة واسعة، وقد يسبب طول الانتظار وفاة هذا المصاب.

■ **إهمال الطبيب:** فقد يقصّر الطبيب في القيام بواجبه على الشكل المطلوب، إما لضعف شعوره بالمسؤولية، أو لأنه يريد الانتقام من وضعه الذي لا يرتضيه. حين ينتابه الشعور بالغبن والهضم، فينعكس شعوره على عمله.

(١) الشيخ الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج ٣، الطبعة الثانية، (قم: جامعة المدرسين)، ص ٣٢. تهذيب الأحكام، ج ٦ ص ٣١٩.

ويلاحظ أحياناً أن بعض الأطباء لا يبذلون جهداً في تشخيص المرض، وقد تصبح الحالة روتينية لدرجة أن تكون الوصفة الطبية مجهزة لكل من يشكو من مرض معين، دون بذل جهد في التحقق، وسؤال المريض عن تفاصيل مرضه. ويتحمل الطبيب مسؤولية كبيرة أمام الله. وهذه مسألة شرعية، فقد يكون الطبيب قاتلاً إذا أدى إهماله وتقصيره إلى وفاة المريض. فحينما يتساهل وعلى أثر هذا التساهل يموت هذا الإنسان، فهو المسؤول عن دمه أمام الله سبحانه وتعالى. ومن الناحية الشرعية الطبيب ضامن وخاصة حينما يفرط، وعليه الدية^(١)، إضافة إلى المسؤولية أمام الله تعالى.

وعي المواطن

ينبغي أن يتوفر الإنسان على مستوى من الثقافة الصحية. فوجود مستوى ثقافي صحي عند الإنسان، يمكنه من معرفة التعامل السليم مع الطبيب والمستشفى، وتعاطي الأدوية. وتوجد لأجل ذلك كتب وبرامج ومصادر وفيرة من المعلومات، وعلى الإنسان أن يتمتع بدرجة من المستوى الصحي ليدفع الأذى عن نفسه وعن أقربائه وعن من معه. هناك من يُسلم نفسه ويفوض أمره أو أمر قريبه إلى الطبيب أو المستشفى، دون أن تكون لديه أي خبرة أو أوليات حول المسألة.

الثقافة الصحية مهمة جداً ولا عذر للإنسان الآن إذا قصر فيها، فالكتب متوفرة، وهناك مجالات متخصصة في الطب والصحة. وخاصة إذا كان الإنسان مبتلى بمرض معين، أو مسؤول عن من هو مبتلى بمرض كالسكري

(١) محمد حسن النجفي. جواهر الكلام، ج٤٣، الطبعة الأولى ١٩٩٢م، (بيروت: مؤسسة المرتضى العالمية)، ص٤٤.

أو أمراض القلب أو ما أشبهه، يجب عليه أن يصرف جزءاً من وقته لتحصيل ثقافة صحية في هذا المجال. فعليه أن يعرف ما هو المرض والأمور التي تسبب مضاعفته، ووسائل الوقاية منه؟ كيف ينبغي التعامل معه؟

فالثقافة الصحية تنفع في الوصول إلى نتائج أفضل. ويذكر أن الأطباء اليابانيين يشعرون بالتذمر كثيراً من مرضاهم؛ لأن بعض المرضى يتحدثون مع الطبيب عن قضايا علمية تتعلق بمرضهم، قد لا يكون الطبيب مستحضرًا لها. وقد يحتج على الطبيب بدراسة أو بحث اطلع عليه سابقًا. ويتساءل الأطباء هناك هل نحن في عيادة أم في كلية طب؟! وفي مقابل هذه الحالة نرى مجتمعنا الذي اعتاد الناس فيه على تسليم أنفسهم أو مرضاهم إلى الطبيب، دونما ثقافة، أو إلمام بأساسيات المرض المشتكى منه. إن الثقافة الصحية للمريض تكون عونًا للطبيب أيضًا. ووقاية من حدوث بعض الأخطاء.

كما ينبغي الرقابة والاهتمام من قبل المواطنين، فما دام الطبيب معرضًا للخطأ أو التقصير، ينبغي على المريض أو من هو مسؤول عنه أن يكون واعياً ومنتبهًا. فلا يصح أن نأخذ الأمور على أنها مسلمت، سواءً مع الطبيب أو مع الممرض أو الممرضة. ففي بعض الأحيان تأتي المشاكل من جهاز التمريض. حين يكون بعض أفراد غير أكفاء، أو غير مخلصين في عملهم.

من هنا تأتي ضرورة الرقابة على أداء المستشفيات، فمن واجب المواطنين إذا رأوا ضعفًا أو خللاً، أو تقصيرًا في أداء بعض المؤسسات الصحية، أن لا يسكتوا عن ذلك، بل يدلون بأرائهم، ويقدمون شكاواهم إلى الجهة المعنية في المستشفى أو الوزارة. فهناك إدارة للشؤون الصحية، وهناك وزير مسؤول، وعلى الناس مخاطبة المسؤولين، فالدولة تتحدث عن اهتمامها بهذا الموضوع فعلى المواطن أن يهتم ويوصل الخبر للدولة، وللجهات المسؤولة، والسكوت عن هذه الأخطاء يؤدي إلى تفاقمها واستمرارها؛ لأن المؤسسات من ثروة

الوطن، وهي موضع اهتمام الدولة والحكومة، وقد لا تكون الحكومة قادرة على ضبط كل الأمور بشكل مباشر. وهنا يأتي دور المواطن في إصلاح الخلل، والمجتمعات في مثل هذا الأمر تختلف فمنها من يمسك بزمام المبادرة، ومحاولة الإصلاح، وترميم الخلل، ومنها من يغلب عليه الخمول والكسل أو التشاؤم، ويكتفي بإعلان تدمره في المجالس دون اتخاذ أي إجراء مفيد، وهذا خطأ كبير ندفع ثمنه من صحتنا ومن صحة أبنائنا وأعزتنا.

المبادئ والقيم

إن سيادة المبادئ الدينية والأخلاقية في المجتمع، هي التي تجعل كل فرد من أفرادها، مهتمًا بالمصلحة العامة، حريصًا على حقوق الآخرين، بينما النزعة المادية الذاتية المستحكمة، هي سبب رئيس للتعديات والمفاسد.

وتحتاج المؤسسات الصحية والعاملون فيها، إلى تذكير دائم بالقيم الدينية، والمبادئ الأخلاقية، لتكون نصب أعين العاملين. والتوجيه الديني في المجتمع يجب أن يذكر صاحب أي وظيفة أو دور بمسؤوليته تجاه الله، وتجاه مجتمعه ووطنه، وأن مراعاة هذه المسؤولية هو من صلب الالتزام الديني.

فالتدين ليس مجرد شعائر وطقوس، بل هو قبل ذلك التزام سلوكي بالواجبات الاجتماعية.

الانحراف: أسباب وحلول*

لا يخلو مجتمع من المجتمعات البشرية من حالات انحراف تظهر بين الفينة والأخرى على سطحه، بعضها فردي والآخر جماعي، وتكشف تلك الحالات عن وجود خلل ما في بنية ذلك المجتمع، فهي كالأعراض المرضية التي تشير إلى وجود المرض. وقد تحتاج كل حالة من الحالات إلى تشخيص طبيعتها لمعرفة نوع المرض الذي يدفعها إلى الظهور.

واللافت للنظر في مجتمعنا المسلم والمحافظ أن تظهر حالات من الانحراف الخطرة، وأن يتوالى حدوث تلك الحالات فتتحول إلى ما يطلق عليه بالظاهرة.

واللافت جداً أن يصبح القتل ظاهرة، وأن يصبح اللجوء إلى وسائل العنف والإيذاء ظاهرة.

إن من الممكن أن يكون لبعض حالات القتل والاعتداء على النفوس بالجرح أو الإصابة عوامل وأسباب قوية.

ولكن ما ينذر بخطورة هذه الظاهرة أن تكون الأسباب المؤدية إلى حدوثها أسباباً واهية وضعيفة، كأن يختلف طرفان على مبلغ مادي قليل فيقتل

* مشاركة نشرت في جريدة (البلاد) بتاريخ ١٩ ذو القعدة ١٤٢١هـ، ضمن ملف: (الإعلام والجريمة).

أحدهما الآخر لأجله، أو يؤدي إلى ذلك صراع بسيط بين طفلين، أو مشادة كلامية حول قضية جزئية..

في مثل هذه الحالات ينبغي التعامل مع هذه الظاهرة باهتمام شديد ووعي تام.

ورغم أن الحالات التي حدثت في المملكة هي حالات محدودة ومعدودة، قياساً إلى نسبة مثيلاتها في مجتمعات أخرى، غير أنها تبقى حالات تستدعي منا ومن المهتمين إخضاعاً للدراسة الموضوعية والتحليل العميق.

ذلك أن بلادنا ومجتمعنا - في نظر الكثير من المجتمعات والشعوب الإسلامية - هو الأسوة والقدوة.. فيه الحرمان الشريهان، وفيه مهبط الرسالة وبذرة التوحيد ويشكل مرجعية دينية يتوجه المسلمون شطرها، ويتمتع بسمعة عالية في الأمن والاستقرار الاجتماعي.

من هنا فإن مبادرة جريدة البلاد، بطرق هذا الموضوع وإثارة النقاش حوله هو جهد طيب ومشكور يكشف عن وعي بالمصلحة العامة للوطن والمجتمع.

من أسباب الظاهرة:

أولاً: الخواء الروحي

فالانغماس الشديد في المادة، واللهاث وراء المغنم المادية دونما مراعاة للقيم والمبادئ يحجب قلب الإنسان عن الاستماع إلى نداء الضمير وصرخة القيم التي تنطلق من هذا الواعظ أو ذاك.

ففي جو يسوده الجفاف الروحي والجذب المعنوي لا يستبعد أبداً أن تحدث هذه الظواهر، ولكنك لن تجد الحالة كذلك لو تكثف حضور القيم وقويت خطوط الاتصال والارتباط مع الله سبحانه وتعالى، حيث يتقلص

دور المادة وضغط الشهوة وسلطة الأنا، وحيث يعلو صوت الحق ونداء القيم والمثل.

فالحدود المادية الضيقة حينما توظّر الحياة تجعل مساحات التلاقي بين المرء والآخرين ضيقة، وتجعل المتخالفين أقرب إلى التنافر منهم إلى التلاقي. وربما لذلك نجد أن كثيراً من النصوص الروحية عند المسلمين، التي يقرؤها الإنسان في حالة الدعاء والانقطاع إلى الله تؤكد على تصحيح هذه الزاوية في النفس البشرية. انظر مثلاً قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾. وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾.

ثانياً: ضعف التوعية والتثقيف

هنالك كثرة من الوعاظ والمرشدين في مجتمعنا المسلم، وخصوصاً في المملكة، وهو وضع يغبطنا الكثيرون عليه، وهذا الوضع يفترض فيه أن يكون سبباً قوياً لتجسيد القيم والمبادئ في مجتمعنا، ويفترض في هؤلاء الوعاظ أن يقوموا بدور كبير في معالجة المشاكل الحقيقية التي تنشأ في المجتمع.

والملاحظ على حركة الوعظ والإرشاد أنها تحتاج إلى كثير من الجهد والتطوير حتى تستطيع أن تعالج المشاكل المتفاقمة المحلية والواردة التي يعيشها الناس.

فالوعظ بطريقة فوقية، أو بأسلوب سطحي لا ينفذ إلى العمق، أو يتحدث بلغة المفروضات والواجبات دون مراعاة الصعوبات والمعوقات واستخدام لغة التعنيف أو التكفير وما شابه، كل ذلك وغيره يفقد هذا الجانب والجهة التي تتبناه تأثيرها المطلوب، وأكثر من ذلك، حيث مع مرور

الزمن تزداد الهوة بين الناس وبين هذه الطبقة. من هنا ينبغي لرجال العلم والأئمة والمرشدين أن يطوروا خطابهم وأساليبهم، وأن يصلوا إلى مستوى القدرة على التأثير والتغيير ومعالجة المشاكل المختلفة للناس.

وذلك لا يتحقق إلا بطرح حلول حقيقية للمشاكل القائمة وخلق ظروف وأطر مناسبة لمعالجتها، وابتكار لغة خطاب قادرة على جذب الجمهور نحو تحمل المسؤولية والمشاركة الفعالة في تجاوز المشاكل الاجتماعية.

وقد يفرض هذا على الوعاظ والمرشدين أن يتحولوا إلى مؤسسين وشركاء في إرساء مؤسسات اجتماعية تقدم حلولاً منطقية للمشاكل، وأن يمارسوا مهمة الوعظ والنصيحة من خلال الجهد العملي لا التنظير والكلام فقط.

ثالثاً: الاحتواء والاستيعاب

في بعض المجتمعات المتقدمة هنالك أجهزة ومؤسسات قادرة على التعامل مع الانحرافات الصدامية، وقادرة على التعامل مع الأشخاص الذين يسلكون العنف من أجل الوصول إلى مآربهم، وبعض المؤسسات تعمل على سحب فتيل العنف قبل انفجاره. فالخبراء الاجتماعيون والاستشاريون النفسيون والمصحات العقلية والنفسية وفرق مواجهة المتحررين، كل تلك الجهات تحاول التخفيف والتنفيس من حالات الاحتقان التي قد تنشأ بفعل الإحباط أو مواجهة مشكلة اقتصادية أو اجتماعية أو قد تنشأ من أسباب نفسية أو ظروف أخرى غير معلومة.

لقد بات من الضروري أن يكون في كل مجتمع جهات استشارية يلجأ إليها الناس حينما يشعرون بمواجهة مشكلة ما.. وتكون مهمتها، في الحدود الدنيا، إتاحة الفرصة للناس للتعبير عن مشاكلهم والبوح بما يشعرون به في

ذواتهم تجاه أي تحدٍّ يواجهونه.

ويمكن أن يقوم بهذه المهمة الاختصاصيون النفسيون، والمرشدون الاجتماعيون ورجال العلم الواعون، وأهل الرأي والخبرة في المجتمع. وإذا كانت الأمور في المجتمعات الأخرى تجري بأسلوب أن صاحب المشكلة هو الذي يعرض مشكلته، فإننا قد نحتاج من أهل الرأي والحصافة أن يبدأوا هم بإعطاء المجال لأصحاب المشاكل للتعبير عن معاناتهم. إن مجرد شعور الشخص بأن ثمة جهة ما تستمع إليه وتتفهم ظروفه ومعاناته، سوف يخفف كثيرًا من وقع المشكلة عليه ويجعله أكثر اقتناعًا بإمكانية حل مناسب لها.

المحتويات

٥	مقدمة
٧	الفراغ الروحي: قلق واضطراب
١٩	تجليات الالتزام الديني
٢٩	التربية على محبة الناس
٣٧	رعاية النظام والقانون
٤٩	رؤية شرعية حول تساهل الموظفين
٥٧	المؤسسات الصحية وخطورة المسؤولية
٦٧	الانحراف: أسباب وحلول
٧٢	المحتويات